التأريخ المعجمي والتطوّر اللغوي

أ.د. عبد العلي الودغيري
أستاذ باحث – جامعة محمد الخامس الرباط

-1-

ليس التأريخ لمعجمِ لغةٍ من اللغات في نهاية الأمر سوى رَصْدٍ لتطوُّر أهمِّ مُكوِّنٍ من مُكوِّنات هذه اللغة وأكبَرِها عُرضةً للتحوُّل والتغيُّر. إذ من المعروف لدى الدارسين المختصِّين أن حجم الاستقرار في أنظمة الصوت والصرف والتركيب أقوى بكثير مما هو في المعجم الذي عادةً ما يُوصَف بأنه نظامٌ مَفتوحٌ وسريعُ الحرَكة، له بابان: أحدُهما تدخل منه الألفاظ والتعبيرات التي تُستحدَث باستمرار، ولا سيما في مراحل معيَّنة من حياة المجتمعات اللغوية التي تشهد طَفَرات انتقالية سياسية أو اجتماعية وثقافية أو اقتصادية أو دينية، وبابٌ آخر تخرُج منه الألفاظُ والتعبيرات والاستِخدامات التي شاخَت وانتهَت مدةُ صلاحيَّتها، لتحلَّ محلَّها ألفاظٌ أخرى تؤدي وظيفتَها بطريقة مغايِرة ونفَسٍ قويٍّ شابٍّ، أو لتُعبِّر عن أفكارٍ ومعانٍ وأشياء لم تكن موجودة من قبل، لكن الضرورة والحاجة اقتَضَتا إحداثَها أو جَلْبَها واقتراضَها من لغات أجنبية. ولذلك فإن بعضاً من الألفاظ القديمة يختفي من الاستعمال بصفة نهائية، وبعضاً آخر يُحتفَظُ به مع وجود ما يقوم مقامَه أو ينوبُ عنه، فتتراكمُ الكلماتُ وتتكاثَرُ المُترادِفات ويتضخَّمُ الرصيدُ المعجميّ في اللُّغات ذات التاريخ العريق، فيكون ذلك من باب الثراء الزائد أو الغِنَى الفاحِش.

ومن المعلوم أن التأريخ للوحدات المعجمية لا يكون محصوراً في نقطة واحدةٍ، وهي البحث عن تاريخ ظهور الألفاظ وبدءِ استعمالها في اللغة المدروسة،

ولكن يذهب إلى ما هو أعمقُ من ذلك وأَشمَلُ، وهو تتبُّعُ مظاهر استعمالها في اللغة عبر مختلف أطوارها منذ نشأتها والبدءِ في استخدامها إلى بقية المراحل من حياتها وامتدادها الزمني والجغرافي، ومُلاحقةُ مَسارها في كل بيئاتها التي تَقَلَّبَت فيها والمجالات والحقول الدلالية التي انتقَلت منها وإليها، وتسجيلُ كل الملاحظات الخاصة بالتغيُّرات التي طَرَأت على صِيَغها اللفظية صوتاً وصرفاً، سواء في حالة انفرادِها وانعِزالها أم في حالة انتِظامها مع غيرها وتَرْكيبها في جُمَلٍ وسلاسل كلامية بسياقاتٍ مختلفة (لأن سياقات الكلمات وهي مُركَّبة ومُنتِظمةً ومؤلَّفة مع بعضها، هي التي تُحدِّد في كثيرٍ من الأحيان جزءاً مهماً من معانيها)، وما رافَق ذلك كلَّه من تحوُّل وتطوُّر في المعاني والدلالات. ويبدأُ تتبُّع حياة الألفاظ وكتابةُ سِيرَتِها الذاتية المفصَّلة والمُعزَّزة بالتواريخ الدقيقة أو التقريبية، والقَرائن والأدلة التي تُثبِت كلَّ ما يُكتَب في سِجِلِّ حياتها من وقائع وأحداث، منذ ولادتها كما قُلتُ، ولا ينتهي إلا بإعلان وفاتها أو انتهاء صلاحيتها وسُقوطها من الاستعمال.

بين التأريخ والتأثيل:

والبحثُ في ولادة اللفظ ووصفِ حالة ظهوره الأول، يبدأ من خُطوةٍ ضرورية هي تأصيلُ هذا اللفظ وتأثيلُه، أي إرجاعه إلى جِذْره المعجمي الذي اشتُقَّ منه إن كان أصيلاً في تلك اللغة، أو إلى أَثْلِه في اللُّغة أو اللُّغات الأجنبية التي جاء منها إذا كان دخيلاً عليها. وقد لا يكون التأثيلُ وحده كافيّاً لمعرفة مصدر اللفظ الدخيل، بل لا بدّ في كثير من الأحيان أن ننتقل إلى ما هو أبعدُ من ذلك، وهو الخُطوةُ التي سَمّاها عبد الحق فاضل باسم التَّرْسيس[1]، ومعناه: محاولةُ

1 – راجع حول مصطلحي التأثيل والترسيس كتاب المرحوم عبد الحق فاضل: **مغامرات لغوية**، دار العلم للملايين، دون تاريخ. وقد أطلق ع. ح. فاضل مصطلح التأثيل بمعنى البحث في أصل الكلمة من أي جنس كان دون تمييز بين ما هو أجنبي أو غير أجنبي، وذلك بعد أن لاحظ أن كلمة (تأصيل) أصبحت مستهلكة ومستعملة في مجالات كثيرة، ولذلك رأى أنه من الدقة العلمية المفيدة تخصيص ما يُقابــل ==

البحث عن رَسّ الكلمة، أي عن أُسِّها في أقدم لغةٍ استخدَمَتها بقدر ما لدينا من معلومات وما نتوفَّر عليه من أدلة ووثائق.

وهذه العملية الثلاثية المُكوَّنة من التأصيل والتأثيل والتَّرسيس، لا غنى عنها في أية محاولة لكتابة تاريخ معجم لسانٍ من الأَلسنة. فهي رُكنٌ ضروري من عملية التأريخ. لأننا نحن حين نريد الشروع في التأريخ لكلمة معيَّنة لا بدّ أن نبدأ من نقطة الانطلاق الصحيحة، وهي أن نسأل أولاً: من أين جاء هذا اللفظُ؟ هل من اللغة التي ندرسُها ونؤرِّخ لها، فنردُّه إلى أصله، وهو جِذْرُه الاشتقاقي، ونُثَبِّتُه فيه، أم من لغةٍ أجنبية فنُبيِّن ذلك ونقدِّم أدلتَنا عليه؟ وفي خُطوة تالية يأتي السؤالُ الثاني: متى ظهر هذا اللفظُ واستُعمِل في معجم اللغة المدروسة؟ والسؤالُ الثالثُ: في أية صيغة صوتية صرفية تلفُّظّية ظهرَ؟ والرابع: بأيِّ معنى استُعمِل في بداية ظهوره؟ ثم تأتي الخُطوةُ التي بعد هذا كلِّه وهي ملاحقةُ سيرةِ حياة اللفظ في مَبناه ومعناه وتتبُّعُ طريقه إلى حين الوصول إلى مَحطَّته الأخيرة التي نَزَل فيها، أي الحالة التي انتهى إليها استعمالُه في التاريخ الذي أَردنا التوقُّفَ عنده، لأننا في الواقع نستطيع أن نبحث عن بداية كلِّ كلمة أو وحدة معجمية ونتتبَّع مراحل حياتها، بقدر ما يتوفَّر لدينا من وثائق ومُستَندات، لكننا لا نستطيع أن نُتابع حياةَ كل ما هو مُستعمَل من الألفاظ التي قد تَظلُّ ثابتةً في مكانها نابضةً بالحياة بعد موتنا ورحيلنا بزمن طويل. فالمؤرِّخُ يَمضي والكلماتُ تبقى.

والإجابة عن السؤال الأول (سؤال التأصيل والتأثيل)، تُصبح ضرورية جداً حتى في حالة ترتيب الوحدات المعجمية في قاموس لغويّ معين، إذا كان هذا القاموس يسير على النظام الاشتقاقي الذي سلَكته الأغلبية الساحقة من

= المصطلح الأجنبي (etymology / étymologie) بمصطلح جديد هو (التأثيل). إلا أننا قد نضطر أحياناً إلى التمييز بين ما هو بمثابة الأصل الأصيل لكلمة من الكلمات، أي النابع من أصولها والمتفرِّع عن جذورها الخاصة، فنسميه إذ ذاك (تأصيلاً)، وما هو آت من لغة أجنبية ونسميه (تأثيلاً).

قواميسنا العربية منذ ظهورها إلى اليوم. فقبل أن نقوم بترتيب كلمة (بُرْكان) ـ مثلاً ـ في مكانها من القاموس العربي، علينا أن نعرف أن هذه الكلمة، على الرغم من كونها تُكتَب وتُنطَق بصورة واحدة، لها أصلان اشتقاقيان ومَعنَيَان مختلفان: ف (بُرْكانٌ) الأولى تعود إلى جِذْرٍ عربي أصيل لأنها مجردُ جَمع ل (بُرْكة) بمعنى: طائر مائي أبيض، والثانية (بُرْكان) أصلُها أجنبي معرَّبٌ من اللاتينية: "vulcanus"، ولها معنى مختلف وهو: جَبَلٌ أو مكانٌ يَقْذِفُ بها في جَوفه من حُمَمٍ ومواذّ مُنصَهرة. والترتيب على أساس الاشتقاق والتأثيل يقتضي أن نضع الأولى تحت المدخل المعجمي الكبير (ب ر ك) والثانية تحت مدخل (ب ر ك ا ن) باعتبار أن كل حروفها أصلية حسب القاعدة الصرفية الاشتقاقية المعروفة. وعلى هذا الأساس لن تُرتَّب (ماروت) في (م ر ت)، ولا (هاروت) في (هـ ر ت)، وإنما في (م ا ر و ت) و (هـ ا ر و ت).

يمكن القولُ، إذن، إن العلاقة بين التأريخ والتأثيل المُعجمِيَّين بصفة إجمالية هي علاقةٌ تكامُلية تدخل ضمن ما نسمّيه عادةً علاقة الكلّ بالجزء. باعتبار الثاني جزءاً لا يتجزَّأ من الأول، والأول لا يمكنه الاستغناء عن الثاني لأنه واحدٌ من مكوِّناته اللازمة. فكتابة تاريخ لفظٍ حالَ كونه مقترَضاً من لغة أجنبية لا يمكن أن تكتمل وتتمَّ، إلا بالبحث في كل العناصر المكوِّنة لهذا التأريخ وأولها معرفةُ المصدر اللُّغوي الذي جاء منه، والمحطّات التي مرَّ بها وتوقَّف عندها قبل الوصول إلى اللغة المدروسة، لأن هذه المحطّات قد تكون عبارةً عن مجموعة من اللغات، وفي كل لغة قد يتجلَّى اللفظُ المؤرَّخ له في صورة من الصور ومعنىً من المعاني. وغنيٌّ عن البيان أن التأريخ المعجمي لا يمكن تبسيطُه واختزالُه في عملية تحديد سَنوات ظهور الألفاظ والمعاني أو فَترات استعمالها.

ولقد اهتمَّ الغربيون خلال القرون الأربعة الماضية اهتماماً خاصاً بموضوع التأثيل لألفاظ لغاتهم، وألَّفوا فيه قواميس لا حصر لها من كل لون

وشكل منذ القرن السابع عشر. وبما أن مجموعات اللُّغات الأوروبية متشابِكة ومتداخِلة الأصول فيما بينها، فإن كلَّ تأثيل للغة معيَّنة ضمن المجموعة اللاتينية أو الرومانسية ـ مثلاً ـ قد يكون تأثيلاً لبقية فروع هذه المجموعة أيضاً. وكانت كلُّ الخُطوات التي قطعوها في هذا المجال ممهِّدة لمرحلة وَضْع القواميس التأريخية. لأن التأريخ المعجمي، يتوقَّف بشكل كبير ـ كما قُلتُ ـ على هذه الخُطوة الأساس. أما التأثيل في اللُّغة العربية فلم يبدأ إلا بخطواتٍ مُحتشِمة في تُراثنا القديم، على الرغم من أنه كان من الأمور المُفكَّر فيها منذ أول قاموس عربي وصلَ إلينا، وأعني به *كتاب العين* الذي أقامه صاحبُه وبَناهُ على أساس اشتقاقي يقتضي بالضرورة التمييز بين الأصيل والدخيل (المقترَض). ولذلك لا عجب أن نجد آثارَ هذا التفكير التأثيلي مُستبْطَناً ومُستحضَراً بشكل تلقائي في الصناعة القاموسية العربية منذ أولى خُطواتها، إضافةً إلى ما نجده في قواميسنا القديمة من إشارات بين الحين والآخر إلى طبيعة هذا اللفظ أو ذاك، وما إذا كان دخيلاً أو أصيلاً أو مُتنازَعاً في أصله. وقد يُضافُ أحياناً تحديدُ اللُّغة الأجنبية التي جاء منها. ولكن ذلك لا يتمُّ بشكل مَنهَجيّ مُنتَظِمٍ وإنما يأتي بطريقة عفوية في الغالب. ولم تظهر المحاولة الأولى المستقلة بذاتها عن القواميس العامة في تاريخ المعجم العربي إلا بظهور كتاب *المعَرَّب من الكلام الأعجمي* لأبي منصور الجواليقي (ت540هـ)، أو على الأصح لم يصل إلينا شيءٌ من هذا الصَّنيع قبل ذلك فيما نعلم. أما كتابُ ابن فارس (ق4 هـ / 10م) المعروف ب: *مقاييس اللغة*، فهو في الحقيقة محاولة في المَنحَى الآخر الذي سَمَّيناه اصطلاحاً (التأصيل) وليس (التأثيل)، أي البحث فيما يجمع من الناحية الدّلالية بين طائفة من الكلمات ذات الجذور المعجمية المشترَكة وإن بَدَت في الظاهر متباعِدةَ المعنى، ولكن البحث الدقيق المتمعِّن قد يؤدي إلى اكتشاف أصلٍ دلالي مشترَك تؤول إليه، وقد يكون هذا الأصل واحداً أو متعدّداً. ثم انقطع خيطُ البحث في هذين الموضوعين معاً

تأثيلاً وتأصيلاً، إلى عصر السيوطي (ت911هـ) الذي كتَب في المعرَّب من ألفاظ القرآن الكريم كتابين مشهورين: *المهذَّب والمُتوكِّلي*، بالإضافة إلى ما أورده في *المُزهر* من كلام في موضوع المعرَّب والدَّخيل. وبعده في ق11هـ ظهر كتاب الخفاجي المعروف ب: *شفاء الغليل فيما في لغة العرب من المُعَرَّب والدخيل*. ولكن هذه الخطوات لم تُتابَع ولم تستمر. وكان علينا أن ننتظر قروناً أخرى لكي نصل إلى العصر الحديث لنجد بعض المحاولات القصيرة النَّفَس والمحدودة العدد.

التأريخ المعجمي في مَساراته المختلفة:

تتَبُّع حياة الألفاظ التي نؤرِّخ لها، لا يمكن أن يتمَّ على الوجه الأكمل والأَشمل، من جهة أخرى، إلا إذا جعلنا هذا التتبُّع يسير في مَسارَين كبيرين يتفرَّعان بدورهما إلى مَساراتٍ صغرى:

المسارُ الأول: هو أن نُلاحِق اللفظَ في تطوُّره التاريخي والجُغرافي داخل اللغة التي ينتمي إليها، أي اللغة التي نؤرِّخ لمعجمها. والمسارُ الثاني: هو أن نُلاحِقه في حِلِّه وتَرْحاله، أي حتى وهو يشدُّ الرِّحال إلى لغة أو لغاتٍ أخرى، ويَستقرُّ فيها لمدة قد تطول أو تقصُر.

وفي المسار الأول لا بدّ أيضاً من متابعة حياة اللفظ في اتِّجاهين اثنين: اتجاهِ استعمالِه داخل المستوى الفصيح أو المعياري، واتجاه امتداده في اللهجات والدَّوارِج المتفرِّعة عن الفُصحى أو المُوازِية لها[2]. ففي اعتقادي أنه لا يَكفي التأريخ للفظ وهو يتطوَّر داخل اللغة المكتوبة (المعيارية الفصحى) وينتقل من

2 – نقول: **اللهجات المُوازية**، لأن اللهجات العربية، ولا سيما القديمة، لم تتفرَّع كلّها عن الفصحى وإنما اختيرت الفصحى (اللغة المعيارية المشتركة) من بين المُستعمل في بعض اللهجات التي اعتقدوا أنها الأفصح من غيرها. وبقيت لهجاتٌ أخرى متداوَلةً ومتوارَثَة شفوياً في موازاةٍ مع المستوى المعياري كما سنذكر بعد قليل.

مرحلة إلى أخرى، ومن وجه إلى وجه، ومن معنى إلى معنى، ثم نُهمِل مَسارَ هذا اللفظ وحياتَه وحركتَه وتنقُّله واستعماله في اللُّغة الشفوية الدَّارجة على الألسُن، وهي التي كثيراً ما تُوصَف ب (اللغة الحَيَّة) تركيزاً على صِفتَي الحيوية والاستعمال التلقائي الذي تشتركُ فيه كلُّ فئات المجتمع في كل وقتٍ وحين، وذلك على الرغم من الصعوبات التي تواجهنا في هذا الجانب وأهمُّها كثرة ما لدينا من لهجات قديمة وحديثة، وقلة ما بأيدينا من وثائق ونصوص نستطيع اعتمادَها في التأريخ لألفاظ هذه اللَّهجات. ولكن مهما بدا في الأمر من مشقة كبرى، ومهما كان حجمُ المشاكل، فإن المبدأ لا بدّ أن يظلّ ثابتاً، والهدف مرسوماً وقائمًا حتى ولو توقَّف العمل من أجله الآن أو تعثَّر وتَعسَّر. فالتأريخ للوجه الآخر من استعمال اللفظ في مجاله الشفوي اللهجي الدارج يبقى مطلوباً لاستكمال العملية التأريخية من وجْهَيها المُتلاحِمَين المُتكامِلَين. ولتكن البدايةُ بما هو متوفِّرٌ لدينا من نصوص ووثائق مكتوبة، وما يمكن العمل على جمعه وتدوينه وتوثيقه في عملية مَسْح شاملة استِعانةً بما هو متوفِّر ومُتاح من وسائل وتِقنيات التسجيل الحديثة.

فمثل هذه الاستعمالات التي جعلت ألفاظاً من الفصيح تتطوَّر في معانيها ودلالاتها إلى ما تطوَّرت إليه خارج المستوى المُعتَدِّ به في المجال العلمي والأدبي والثقافي الكتابي، لا يمكن إغفالُها أو المرورُ عليها دون التفاتٍ أو اهتمامٍ في عملية التأريخ التي نحاول القيام بها لمعجمنا العربي. ومن المعلوم أن هنالك ما لا حصر له من الأمثلة التي توضِّح التطورات والتغيرات الصوتية والصرفية والتركيبية التي طرأت على الألفاظ العربية حين انتقالها من المستوى المعياري المشترك إلى مستويات الاستعمال المحلية في البيئات الثقافية والاجتماعية الكثيرة التي انتشَرت فيها اللغة العربية واضطُرَّت حينها إلى التفاعُل مع لغات محلية وإقليمية كثيرة وتبادل أدوار التأثير والتأثر فيما بينها. فضلاً عن جانب شديد الأهمية

لمؤرِّخ اللغة العربية، وهو أن اللهجات العربية القديمة التي نقرأ عن أخبارها ولا نرى إلا قليلاً من آثارها وأمثلتها، ما تزال ممتدَّةً في اللهجات والعامِّيات الحديثة بكل أصقاع العالم العربي. لأن عملية التقعيد التي تمَّت في عصر التدوين ونتَج عنها اختيارُ مستوى مِعياري مُشترَك يُمثِّل العربية الرَّسمية للدولة (العربية الفُصحى)، لم تؤدِّ إلى إلغاء اللهجات التي كانت سائدة ومنتشِرة على ألسنة القبائل المختلفة ومَنعِ استعمالها، بل إن هذه القبائل حين انتشرت، أو قسمٌ كبيرٌ منها، في أرجاء العالَمِ الإسلامي، مع توسُّع الفتوحات، حملت معها لهجاتها التي اعتادت عليها واحتفظت بها طيلة العصور التالية مع تأثُّرها باللُّغات المحلية والإقليمية وتفاعُلها معها وخُضوعها لما تخضع له اللُّغاتُ البشرية من تطوُّر وتحوُّل. ولذلك تجدنا بين الحين والآخر، نكتشف أن لهجةً ما من اللهجات العربية في منطقة ما من العالَمِ العربي، ما تزال تحتفظ بكلمات ودلالات وظواهر ترجع إلى عصر قديمٍ من عصور العربية، وقد لا نجد لها ذكراً فيما دُوِّن من قواميس. فدراسةُ اللهجات الحديثة من هذه الناحية أيضاً له فوائدُه الجَمَّة في الكشف عن جوانب مغمورة من تاريخ العربية ومعجمها على الخُصوص، لأننا سنجد فيها بكل تأكيد بقايا ورواسِبَ من عهود اللهجات القديمة مستمِرَّةً وممتدة في العربية المعاصِرة.

أما تتبُّع حركة الألفاظ العربية في مسارها الثاني، أي حين تنتقل بالإعارة والاقتراض إلى لغات أجنبية، فذلك أيضاً أمرٌ على جانب كبير من الأهمية. ولا سيما أن انتقالَها للعيش في ظل لغة أخرى لا يعني انقطاعَ صلتِها بالعربية أو التخلِّي عن جنسيتها الأصلية نهائياً. فما يحدثُ لبعض الأشخاص الذين ينتقلون للعيش في فترة تطولُ أو تقصُر في ظل بيئة أخرى مع احتفاظهم بحقِّهم في جنسية بلدهم الأصلي والانتماء إليه، يحدُث مثلُه أو شبيهٌ به لكثير من الألفاظ المُهاجِرة، فنراها تحتفظُ بوجودها وجِنسيَّتها في وطنها الأول، إلى جانب

ما اكتسَبَته في البيئة الجديدة من حُقوق أخرى. فإذا تعدَّدت إقامتُها في بيئات لغوية تعدَّدت معها جنسياتُها، وأصبحت مِلكاً مُشترَكاً بينها جميعًا، دون أن يُمحَى من تاريخها وسجِلِّ حياتها ما لها من حقٍّ وجذور ثابتة في تُربة وطنها الأصلي. وكثيرٌ من ألفاظنا العربية اكتسبَت مثلَ هذه الصِّفات، فهي عربيةٌ من وجه، وفارسية وتركية وفرنسية وإسبانية وإيطالية وبُرتغالية وإنجليزية... من وجه آخر. ولها في كلِّ بلد صِيَغٌ وأشكالٌ واستعمالاتٌ ودلالاتٌ وسياقاتٌ، وروابطُ ووشائجُ وعلاقاتٌ، وتواريخُ وذكرياتٌ. وربما يصبح لها في كل بيئة فروعٌ ومشتقّاتٌ تناسَلت منها وتَكاثَرت. وكلُّ ذلك ما هو إلا تَكمِلة لسلسلة المراحل التي قطعتها في حياتها التي نؤرِّخُ لها. فلماذا نحتفي بجزءٍ من تاريخ الكلمة ونكتفي به ولا نريد أن نسمع بقيةَ القصة وفيها ما هو مُثيرٌ ومُشَوِّقٌ ومُمتِعٌ حقاً؟ ولا سيما أننا نجد فئةً خاصة من هذه الألفاظ المُهاجِرة المُعارَة للغات أخرى، لا تنتهي مسيرةُ حياتها عند مَرافِئِ اللُّغات الأخرى التي وصلت إليها، وإنما قد تقتضي ظروفُها أن تعود إلى وطنها الأصلي بصورة أو بأخرى فتكون لها قصةٌ أطولُ من غيرها، ودورةٌ تاريخية كاملة، تبدأ من لغتها الأصلية لتنتهي بالعودة إليها، بعد رحلة فيها سِلسِلةٌ من الحَلقات الحافلة بالوقائع والأحداث والتنقُّلات والمُغامرات، تستحقُّ كلُّها أن تُكتَب وتُروى.

إن تتبُّع وقائع ألفاظنا وحياتِها في بلاد الغُربة لفيه من الفوائد اللغوية والتاريخية الكثيرُ مما يستحقُّ عناءَ الدَّرس والبحث والتَّقَصّي، فمن خلاله قد نتعرَّف مثلاً إلى طائفةٍ من ألفاظ لغتنا الفصيحة أو العامية، كان لها وجودٌ وحُضورٌ في معجمنا العربي خلال مرحلة من حياة اللغة، ثم انقطَعَت أخبارُها ولم نعُد نسمعُ شيئاً عنها، مع أنها ما تزال حيَّة مُتداوَلة في لغة أو أكثر من لغات العالَم. وقد نكتشف طائفةً أخرى من الكلمات لم يكن لنا علمٌ بانتسابها إلى العربية إلا من خلال ما يمكن استخراجُه من بطون القواميس الأجنبية التي

احتفَظَت بوجودها وسَجَّلَت حُضورها بالصورة القديمة التي كانت عليها في مرحلة معيَّنة، أو مع تحويرٍ وتغيير، مع أن أيَّ قاموس عربي لم يُشِر إلى وجودها يوماً من الأيام. فلولا فضلُ القواميس الأجنبية التي احتفظَت بها وعَمِلت على احتضانها وإيوائها وتسجيل أجزاء من سيرتها الذاتية، لما كان لها ذكرٌ في تاريخ لغتنا على الإطلاق. بل إن من الفوائد الجليلة التي تقدِّمها لنا دراسة الألفاظ المهاجِرة والمستقِرَّة في معاجم أجنبية أنها تُمِدُّنا في كثير من الأحيان بعناصر قيِّمة تساعد بشكل قوي على معرفة تاريخ الكلمات العربية ذاتها التي انتقلت إلى هذه اللغة الأجنبية أو تلك. ولنضرب على ذلك بعضَ الأمثلة:

المثال الأول: من كلمة: "soltan" المقترَضَة من (سُلطان) العربية. فهي في القواميس الفرنسية تدل على نوع من السُّكَّر القَنْدي الذي كان يُصَنَّع في القاهرة ويقوم البروفِنْصاليون (من جنوب فرنسا) بالمُتاجرة فيه. وقد كان هذا اللفظ مع الشيء المسمَّى به متداوَلَيْن في مصر خلال القرن الثامن عشر الميلادي (وربما قبل ذلك). لكن القواميس العربية لم تتطرق إلى وجود هذه الكلمة بهذا المعنى، ولم يزد دوزي حين استدركَها على كلمة واحدة قالها في شرح معناها وهي: «سُكَّر». ومن ثمَّ أصبح للقواميس الفرنسية التي احتفظت بهذا اللفظ وبتاريخ دخوله إلى هذه اللغة الأوروبية وهو ق18م، وبمعلومات أوفَى مما ذكره دوزي (وهي أنها كانت مادة تُصنع في القاهرة وتُصدَّر إلى فرنسا عن طريق التُّجار البروفنصاليّين) أهمية تاريخية جديرة بالاعتبار. فهي الآن بمثابة وثيقة وشهادة حياة لهذا اللفظ الذي لولا القواميسُ الفرنسية لكنا قد فقدنا عنه كل هذه المعلومات، في انتظار الوقوف على وثائق أخرى عربية أو أجنبية تُمِدُّنا بأخبار جديدة.

ومثال ثانٍ: من لفظ: "satin" الذي استعارته الفرنسية منذ ق14م بمعنى نوع من الحرير المَجلوب أصلاً على يد التُّجار المسلمين من مدينةٍ صينية أطلقوا عليها اسمَ (زَيتون) مكانَ اسمها القديم، فصار هذا الحرير النفيسُ يُنسَب إليها.

وعلى الرغم من كون كلمة (زيتون)، وردت عدة مرات في *رحلة* ابن بطوطة إلا أن هذا الرَّحالة المغربي الشهير اقتصر على ذكر معناها الأصلي وهو أنها اسم مدينة صينية، ولم يتطرَق إلى معناها الفرعي وهو: الثوب الحريري المنسوب إليها، وإن كان قد تحدث عن ثوب آخر كان يُجلَب منها يسمى "الكَمْخا". وقد يكون اللفظان يدلان على شيء واحد، لكن هذا الأمر يحتاج إلى إثبات وتحقيق تاريخي لغوي خاص. المهم أن كلام القواميس الفرنسية عن لفظ "satin" وأصوله الإيتيمولوجية ومكانته في التجارة بين الشرق والغرب يُكمِّل بلا شك المعلومات الأخرى التي نجدها في ابن بطوطة وغيره.

ومثالٌ ثالث: من كلمة: "tarif" (مذكَّرة) التي دخلت إلى الفرنسية لأول مرة بصيغة: "tariffe" (مؤنَّثة) سنة 1572م بمعنى: قائمة تُحدِّد أسعار البضائع والواجبات التي تُدفَع عن بعض الخِدْمات. وكانت الفرنسية قد استعارتها من الإيطالية : "tariffa" بالمدلول ذاته. والإيطالية بدورها اقترَضتها منذ سنة 1358م بهذا المعنى من العربية: (*تعريفة) أو (تعريف)*. ومعنى هذا أن لفظ (تعريف/ تعريفة) كان موجوداً في العربية بهذا المعنى منذ منتصف ق14م على الأقل، ومع ذلك لم تُعِره القواميسُ العربية أيَّ اهتمام إلا ابتداءً من ق19م حين وجدناه يظهر لأول مرة ـ فيما يبدو ـ في القاموس الثنائي الفرنسي العربي لإليوس بُقطُر (1828م) الذي ترجم كلمة "tarif" الفرنسية ب "تعريف: بيان الأسعار". ثم جاء بعده دوزي (1881م) فاستدرك كلمة (تَعريفة) في *تكملته* بمعانٍ ثلاثة وهي: 1) حقوقُ الدخول والخروج التي تُدفع على كل سِلعة. 2) لائحة تبيِّن الواجبات والرُّسوم الجُمركية. 3) لائحة تبيِّن قيمةَ العُملات التي تُحدِّدُها المحكمةُ التجارية. ثم جاء البُستاني في *محيط المحيط* (1886م) فوجدناه بدوره يورد لفظ (تعريفة) ويفسِّر معناها بقوله: «التَّعريفة: المَرَّة، وفي اصطلاح أرباب السياسة تُطلق أولاً: على ما يُؤخذُ من الرَّسم على الداخل والخارج من البضائع،

ثانياً:على الكِتاب المُتضَمِّن بيانَ ما يُؤخذُ على كل صنف منها، ثالثاً: على لائحة أسعار العُملة المعيَّنة من الحكومة.. ». والغريب في الأمر أن نجد *المعجم الوسيط* الذي ظهر بعد ذلك بحوالي ثمانين عاماً (1962م) يعرِّف الكلمة بأنها: «قائمةٌ تحتوي على أثمان السِّلَع وأُجور العمل ورسوم النَّقل»، ويزعم أن ذلك من وضع المجمع اللغوي. مُوهِماً بأن هذا المعنى لم يكن له وجود قبل ذلك التاريخ. مع أن الكلمة بمعناها المذكور قديمة الاستعمال في العربية يعود تاريخُها إلى ما قبل استعارة الإيطالية لها في منتصف ق14م (8هـ) بكل تأكيد، وهذا ما كشَفَت عنه القواميسُ التأثيلية التاريخية الأوروبية كما رأينا.

ومثالٌ رابع: من كلمة: "intifada" بمعنى الانتفاضة الفلسطينية التي دخلت إلى المعجم الفرنسي المعاصر سنة 1987م وهي السنة التي وقعت فيها الأحداثُ المعروفة بانتفاضة أطفال الحجارة ضد الاحتلال الإسرائيلي، بل إن *قاموس أكسفورد* الإنجليزي نفسه أرَّخ لهذه الكلمة بالتاريخ نفسه وأضاف أن هذه الانتفاضة كانت هي الأولى وامتدَّت من 1987م إلى 1993م والانتفاضة الثانية كانت سنة 2000م. ولا أدري هل هنالك قاموس لغوي عربي معاصر أرَّخ للكلمة بمثل هذه الدقة التي أرَّخ بها أكسفورد وقاموس روبير الكبير الفرنسي وغيرُهما؟ لقد حاولت البحث عن ذلك، فأَسرعتُ إلى *المنجد في اللغة العربية المعاصرة* (ط.2008/3)، فلم أجد فيه سوى هذا التعريف العامّ وهو قولُه: «انتفاضةٌ: حركةٌ شعبية تتميَّزُ بالقوة والعُنف والهَيَجان». وكأن مؤلِّفيه لا علم لهم إطلاقاً بالانتفاضة الفلسطينية وقد دارت أحداثُها على مرمى حجر من لبنان الذي صدر عنه الكتابُ. ثم تناولتُ معجم *اللغة العربية المعاصرة*(ط2008/1) فوجدته ينقل عبارة سَلَفه مع بعض التحوير فيقول: «حركةٌ أو ثورةٌ شعبية سياسية أو اجتماعية رافِضة تَغلبُ عليها القُوةُ والعُنف والهَيَجان»، إلا أنه بالكاد تكرَّم علينا بإضافة مثال لتوضيح السياق بقوله: «انتفاضة الأقصى». وفضلاً عن

الإهمال التام لتاريخ ظهور الكلمة بمعناها الجديد في العربية المعاصرة والقاموس السياسي العربي الحديث، هناك بَونٌ شاسعٌ بين هذا التعريف المُجحِف الذي نجده في القاموسين العربيَّين المذكورين والتعريف الذي نجده في روبير الكبير الذي يمكن ترجمتُه حَرفياً على النحو الآتي: «قَوْمَة شَعبية اتَّخذَت شكلَ مقاومةٍ لم يَستعمل فيها الفلسطينيون وسائلَ عسكرية وإنما قاموا برَمي الحِجارة داخل الأراضي التي تحتلُّها إسرائيل». أو التعريف الموجود في *قاموس أكسفورد* الذي يمكن ترجمتُه أيضاً على النحو الآتي: «قَوْمَةٌ فلسطينيةٌ ضد الاحتلال الإسرائيلي في الضِّفّة الغربية وقِطاع غَزَّة. وقد امتَدَّت الانتفاضةُ الأولى من سنة 1987 إلى 1993م، وبدأت الثانية سنة 2000م». فأين تعريف القاموسين العربيّين من تعريف القاموسين الأجنبيَّين؟

وهكذا نلاحظ أن هناك مصدراً مهماً يُضاف إلى المصادر الأخرى التي يمكن اعتمادُها في كتابة تاريخ المعجم العربي، وهو هذا الذي نجده في تتبُّع مسار الألفاظ العربية في اللُّغات التي هاجرت إليها. بل قد يتحوَّل هذا المصدر أحياناً إلى منجمٍ للمعلومات القيِّمة والدقيقة التي لا يمكن الاستغناءُ عنها سواء في التأريخ للألفاظ العربية أم للعلاقات التجارية والاقتصادية والسياسية والعسكرية والاجتماعية والثقافية والعلمية والتداخل اللغوي بين العرب المسلمين ودول أوروبا الغربية.

ولا شك أيضاً في أن الألفاظ الأجنبية (والفرنسيةُ واحدةٌ منها) المأخوذة من اللهجات والدوارج العربية في المشرق والمغرب هي أيضاً ذاتُ قيمة تاريخية ولغوية معجمية خاصة، بسبب أن القواميس الأوروبية لم تحافظ فقط على وجود هذه الكلمات العربية المستعمَلة في المستوى اللهجي الدارج، وقسمٌ منها من أصل فصيح، وإنما حافظت بجانب ذلك على طريقة نُطقها وتلفُّظها وعلى دلالاتها المحلّية في البيئة، أو البيئات، التي استعملتها، وعلى كثير من المعلومات

الخاصة بها، إذا كنا بصدد التأريخ للمعجم العربي في مساراته وامتداداته اللهجية المتفرِّعة. أضف إلى ذلك أن ما نملكه من مصادر ووثائق عربية عن تاريخ العربية ولهجاتها ليس كافيًا بالمرة، ولا سيما أن القواميس الفصيحة لم تُواكِبْ حركةَ التطوّر المعجمي العربي الذي حدَثَ خارجَ القواميس عبر العصور وفي مختلف المجالات[3]، فأهملت الكثير من الألفاظ المولَّدة والمحدَثة في مجالات عديدة وعبر حِقَبٍ مختلفة، بسبب موقفها المعروف من هذا النوع من الألفاظ، حتى ولو جاء على مثال الكلام العربي القديم في صياغته والتزامه بقواعد الاشتقاق والتوليد، بينما احتفظت لنا قواميسُ اللغات الأوروبية ـ ومنها الفرنسية ـ بقدر كبير من هذا النوع من الألفاظ.

وليس خافيًا، بعد هذا، أن البحث في مآلات الألفاظ بعد هجرتها وانتقالها إلى لغاتٍ أخرى، يتداخل بلا شك مع الوظيفة التي يقوم بها مؤرخو تلك اللُّغات الأخرى. وقد يُتَّخَذ ذلك مبرِّراً للقول: ما دامت هذه الألفاظ المَعنية قد أصبحت مِلكاً للغة أو لغات أجنبية وجزءاً من معجمها، فمهمةُ التأريخ لها يجب أن تُوكل لمؤرِّخي تلك اللُّغات. لكن هذا لا يتعارض مع ذاك ولا يُغني عنه. فمؤرّخو المعجم الفرنسي أو الإنجليزي على سبيل المثال، مُنكبُّون منذ مدة على عملية التأريخ للألفاظ الداخلة إلى لغتهم والمُقترَضة من العربية وغيرها. ولكن ما يقوم به هؤلاء وغيرُهم لا يُعفينا نحن من مسؤولية تتبُّع آخر الأطوار التي وصلت إليها ألفاظُ لغتنا حتى ولو كانت هذه الأطوارُ واقعةً في جُغرافية لغاتٍ أخرى. فالتداخُل بين اللغات، والتقاطُع بين خرائطها الجغرافية، أمران

3 – نستعمل هنا مصطلحي (معجم) و(قاموس) بالمعنى الذي استخدمناه في كتاباتنا السابقة منذ 1985م، وخلاصته أن (القاموس) هو الكتاب الذي يجمع بين دفتيه قائمة محددة من المداخل المرتبة والمعرَّفة، و(المعجم) هو حصيلة الثروة اللغوية التي يمتلكها المجتمع اللغوي (صاحب اللغة) بكامل أفراده، بغض النظر عما صُنِّف منها في (الكتب القاموسية) وما لم يُصنَّف. راجع: كتابنا: ***دراسات معجمية : نحو قاموس عربي تاريخي وقضايا أخرى*** (الدار البيضاء 2001 ص : 19 ـ 21)، وكتابنا: ***قضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب الشرقي*** (منشورات عكاظ 1989م ص : 140 إلى 156).

حاصلان باستمرار، واهتمامُ كلِّ مَن يعنيهم الأمر بالتأريخ لهذا التداخُل بين اللُّغات من المداخل التي تُناسبُهم والقريبة من معارفهم واختصاصاتهم، لا يُعطِّل عملَ أحدٍ ولا يُعفي أحداً من مسؤوليته، ولا يضع حدوداً فاصلةً بين ما يقومُ به هؤلاء وأولئك. بل إن تداخل الأعمال في هذا المجال، يُعتبر ـ بلا شك ـ من باب التعاوُن والتشارُك والتكامُل بين مؤرّخي اللغات على اختلاف جنسياتهم وأهدافهم ومنطلقاتهم وزوايا نظرهم، بل هو نوعٌ من إثراء المعارف واستكمال المعلومات بحُكم تنوُّع مشارب الباحثين وثقافاتهم وتفاوُتهم في إتقان عدة لغات. فالعملُ الذي يقوم به مؤرِّخ المعجم الإسباني أو البرتغالي ـ مثلا ـ سيشمل بلا شك تلك الألفاظ التي اقترضتها اللُّغتان من العربية وسيقدِّم عنها ما لديه من معلومات (وهذا ما فعله أنجلمان ودوزي)، لكن تلك المعلومات قد لا تكون تامة أو دقيقة، وإنما يتمُّ تدقيقُها واستكمالُها أو تصحيحُها من خلال بحوث وأعمال أخرى تتناول تلك الألفاظ نفسها من زوايا مختلفة ومن منطلقات متغايِرة، من بينها منطلقُ التأريخ للغة العربية نفسها. وهكذا تتآزرُ المعلومات التاريخية ويُصحِّح بعضُها بعضاً بفعل هذا التشارُك وتعدُّد زوايا النظر والبحث والتناوُل.

وفي نهاية الأمر، إن كل ما أشرتُ إليه من تعدُّد المسارات التي ينبغي للمؤرِّخ المعجمي أن يتناولها ويتتبَّعها ويسبر مسالكها، إنما هو توضيحٌ للنظرة الشمولية البانُورامية التي تلتقي داخلها وتتشابَك فيها جميعُ مداخل الموضوع. لكن ليس من الضروري ولا من المُستعجَل أن نُلِمَّ بجميع هذه العناصر دُفعةً واحدة ونسعى إلى إخراج تاريخ معجمي للغة العربية منذ الوهلة الأولى في كتاب واحد مُكتَمِل الأركان والجوانب مستوفٍ لكل هذه العناصر التي نفكِّر فيها، فنُثقل الحِملَ علينا، ونستصعب الموضوع لترامي أطرافه واتِّساع مساحته، ونضيف حجةً جديدة للتَّراخي أو التأخُّر في إنجازه. ولكني ذكرتُ ما ذكرتُ حتى تظل كلُّ هذه الأمور تحت أَعيُننا لا تغيب عنا في مخطّطاتنا البعيدة المدى إلى

أن نتمكَّن من الوصول إليها في يوم من الأيام. فالتأريخ الشامل الجامع لكل ألفاظ العربية واستعمالاتها عبر كل مَساراتها وامتدادها في الزمان والمكان يقتضي نظرياً ومبدئياً هذا النوع من الشمولية والإحاطة، لكن هذا لا يمنع من تقسيم العمل الكبير إلى مراحل وأجزاء وإخراجه على مراحل ودُفعات، وتقديم الأوْلى منه بالتقديم على غيره مما يمكنه الانتظارُ إلى أن تتيسَّر الظروف لإنجازه كاملاً أو مُجزَّأً أيضًا، كما لا يمنع من حَثِّ الباحثين على تسخير ما لديهم من طاقات وخِبرات وجهود وصَرفها في الجوانب التي يُتقنونها ويمتلكون أدوات الاشتغال فيها. ففي النهاية سوف تتكامل الجهودُ وتتراكمُ التجاربُ التي تصبُّ جميعُها في المشروع الكبير الذي تستحقه لغةٌ عظيمةٌ هي لغتُنا التي منَحَها اللهُ لأمة عظيمة تستحقُّها هي أُمَّتُنا.

ـ 2 ـ

نموذَج من الألفاظ العربية المهاجرة :

في نطاق تتبُّع مسار الألفاظ العربية خارج بيئتها العربية، يمكن أن نجعل من الألفاظ العربية المُهاجرة إلى اللغة الفرنسية نَموذَجاً صالحاً للدراسة والتطبيق، ونعتبرها عَيِّنَةً لما يمكن استنتاجُه واستنباطُه من دراسة ما في بطون اللُّغات الأجنبية الأخرى من ألفاظ عربية مستعارة.

كيف هاجَرت هذه الألفاظ ؟

يمكن تقسيم الألفاظ الفرنسية ذات الأصل العربي أو المعرَّب، من حيثُ الأبواب والطُّرُق والمنافذ التي جاءت منها، إلى نوعين: نوعٍ دخل بطريقة مباشِرة، وآخر جاء عن طريق لغاتٍ أخرى.

فأما النوع الأول، فقد جاء بدوره من طُرُق مختلفة. فمنه ما كان عن طريق الاحتكاك المُباشِر بين اللغتين (العربية والفرنسية) في حالتَي السِّلم والحرب. فالتبادُل التجاري كان قائماً باستمرار بين فرنسا والبلاد العربية في المشرق

والمغرب عبر العصور المختلفة. وكانت مدينة مَرْسيليا واحدةً من أهم المرافئ التي تدخل عن طريقها البضائعُ القادمة من الضّفة الجنوبية للمتوسِّط. وعن هذه الطريق دخلت ألفاظ عربية كثيرة رافَقَت البضائع التجارية المشرقية والإفريقية المتنوِّعة، وعلينا أن لا ننسى أن المسلمين الذين سيطروا لقرون عديدة على الضِّفة الجنوبية للبحر المتوسِّط قاموا بدور الوسيط التجاري الأساسي بين الشرق الأدنى والأقصى وإفريقيا الغربية والشرقية من جهة وأوروبا الغربية من جهة أخرى، ولم يتراجع هذا الدور التجاري العربي الإسلامي إلا بعد اكتشاف البرتغاليّين لرأس الرجاء الصالح في نهاية ق15م. وهناك من الألفاظ ما جاء به الرّحّالةُ الفرنسيون من الشرق العربي أو شمال إفريقيا، سواء تعلَّق الأمرُ برحلات الحجّ إلى فلسطين والأراضي المقدسة، أم بالرحلات العلمية الاستِكشافية والدراسية التي كان يقوم بها أشخاصٌ لحسابهم الخاص أو في إطار بَعثاتٍ علمية منظَّمة. ويمكن أن ندرج ضمن هذا النطاق موجة الاستشراق الذي مهَّد لعملية الغزو والاحتلال الأوروبي للبلاد العربية الإسلامية وصاحبَها من البداية إلى النهاية. فالاستشراق نفسُه كان له دورٌ في إدخال قدر لا بأس به من الألفاظ العربية من خلال نقل الكتُب العربية في مختلف العلوم وترجمتها إلى اللغة الفرنسية وغيرها من اللُّغات الأوروبية.

وإلى جانب هذا، كان هنالك نوع آخر من اللقاء المباشر بين اللغتين الفرنسية والعربية، وهو ذلك الذي تمَّ في حالاتٍ من الصراعات والحروب المتبادَلة، منها التوسُّع الإسلامي في جنوب أوروبا بعد فتح الأندلس، وقد وصلت جيوشُ المسلمين إلى مناطق واسعة من النصف الجنوبي لفرنسا ظلَّ صداها يتردّد إلى اليوم فيما بقي من نصوص الأدب الفرنسي القديمة التي من أشهرها أنشودة رولان (ق11م) وشعر التروبادور. ومنها الحروب الصليبية التي امتدَّت لعدة قرون عبر مراحل وحلَقات، وكان الفرنسيون مُشاركين أساسيّين فيها. ومنها حملة نابوليون بونابرت على مصر (من سنة 1798م إلى 1801م)، وقد

رافقَه في هذه الحملة ما لا يقلُّ عن مئة وسبعة وستين عالِماً ومُهندساً، أصبحت منهم أسماءٌ مشهورة في تخصّصات علمية كثيرة. وكانت المهمة التي كُلِّفوا بها هي إنجازُ مَسْحٍ شامل ووصفٍ كامل دقيقٍ ومُفصَّلٍ لكل ما هو موجود في منطقة الشرق ومصر على وجه الخصوص، من معالم العُمران والهندسة والآثار والثقافة والفنون والعلوم، إلى جمع كلّ المعلومات التاريخية والجغرافية والطبيعية، وكلِّ ما يتعلَّق بالتجارة والصناعة والفلاحة ونظام السَّقي والحِرَف والمِهَن والعادات والتقاليد الاجتماعية واللغة وأنواع اللباس والطعام والأكل والشُّرب وكل مجالات الحياة. ولم يعد هؤلاء المستكشِفون والباحثون إلى بلادهم إلا وقد أحصَوا، في موسوعة تقع في عدة مجلدات ضخمة نُشِرت بعنوان:(*وصف مصر أو مجموع الملاحظات والبحوث التي تمّت خلال الحملة الفرنسية على مصر*)[4]، كلَّ أسماء النبات والطير والحيوان والأسماك والأطعِمة والأشرِبة والآلات والموسيقى والطب والصيدلة والآداب وغيرها من الفنون والعلوم، فضلاً عما وضعوه من خرائط جغرافية ورسوم هندسية لمعالم العُمران والآثار وأشكال الزخارف والبناء، وما جَلَبوه معهم من أطنان الكُتب المخطوطة ونوادرها في العلوم والفنون كافة، وآلاف القِطَع الأَثَرية التي أصبحت تزدانُ بها المتاحفُ والقُصورُ الفرنسية. وقد أمدَّت هذه الوثائقُ مؤلِّفي القواميس العلمية الفرنسية التي ازدهرت خلال القرن التاسع عشر الميلادي أَيَّما ازدهار، بمادة علمية ثَرِيَّة جداً وثروةٍ من الألفاظ لا تُقدَّر بثمن. فلا تستغرب، إذن، حين تُراجع بعض هذه القواميس العلمية، ومن أشهرها قواميس العلوم الطبيعية، إذا وجدتَ فيها كلَّ أسماء النباتات والحيوانات والطيور والأسماك وغيرها مما نقَلَته البعثةُ العلمية التي رافقت بونابرت. لقد زعموا أنهم ذهبوا لنشر العلم والحضارة الغربيّين، فإذا بهم قد عادوا بعد بضعِ سنوات بزادٍ وَفيرٍ مما احتفظت به مصرُ، حاضرةُ

4 - *Description de l'Egypte, ou : Recueil des observations et des recherches qui ont été faites* en Egypte pendant l'expédition de l'armée française.

العالم الإسلامي، من ذخائر الشرق في كل مجالات العلم والثقافة والفن والمعرفة، أسَّسوا عليها نهضتَهم الحديثة.

وبعد مصر، جاء دورُ الاحتلال الفرنسي لمنطقة الشمال الإفريقي ثم لمنطقة الشام (سورية ولبنان) وعدد من بلدان غرب إفريقيا المسلمة جنوب الصحراء، وبعض بلدان الشرق الإفريقي والمحيط الهندي التي كانت جميعُها تتَّخذ من العربية وسيلتَها الوحيدة في التعليم والثقافة والكتابة والتدوين والإدارة والقضاء والمراسلات وغير ذلك من الأمور. فكان لا بدّ للفرنسية من أن تتأثَّر باللغة المنتشرِة بشكل واسع في كل هذه المناطق وهي العربية بفُصحاها ودَوَارِجها. وكان لا بدّ لأفراد الجيش والمُستوطِنين الفرنسيّين الذين أقامت أجيالٌ منهم في الأقاليم المحتلَّة، من أن يحملوا معهم عند رجوعهم قدراً كبيراً من الألفاظ العربية. ثم أخيراً، كانت الهجرةُ المكثَّفة للعمال المغاربيّين والأفارقة الذين استوطَنوا فرنسا للعمل أو التجارة أو الدراسة، أن يحملوا معهم بدورهم قدراً آخر من الألفاظ ما يزال كثيرٌ منها منتشِراً في الفرنسية الدارجة بضواحي المدن الكبرى.

هذا عن الألفاظ العربية التي دخلت إلى الفرنسية بطريقة مباشرة. لكن إلى جانب هذا، عمَدت الفرنسيةُ إلى الاقتراض من العربية بواسطة لغات كثيرة غربيّةٍ وشرقية كاللاتينية واليونانية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والإنجليزية والتركية والفارسية والهندية والأمازيغية واللُّغات الإفريقية على اختلافها. وكثيراً ما اكتشفنا، أثناء اشتغالنا بموضوع الألفاظ الفرنسية ذات الأصل العربي، الأخطاءَ التي وقع فيها قاموسيّون وتأثيليُّون كثيرون حين نسبوا قدراً من الألفاظ ذات الأصل العربي إلى لغات أخرى دون أن ينتبهوا إلى أن هذه اللُّغات كانت قبل ذلك قد استعارت بدورها تلك الألفاظ من العربية. وقد قامت اللاتينية الوُسطى بتزويد الفرنسية وغيرها من اللُّغات الأوروبية الناشئة بطائفة كبيرة من ألفاظ العلوم المختلفة التي استمدَّتها مباشرةً من ترجمة المصادر

العلمية العربية إليها في العصر الوسيط. وقد ظلت هذه الألفاظ مستعملةً بصيغها اللاتينية إلى مرحلة متأخّرة قبل أن يُحوَّل جزءٌ كبيرٌ منها إلى الفرنسية. وهناك كلماتٌ اضطُرّت إلى المرور بمحطات مختلفة والسَّير عبر مُنعَطفات ومُنْعرَجات جدِّ مُلتَوية قبل أن تصل إلى محطّتها الفرنسية. وقصةُ كلمةِ (casanier) في اللغة الفرنسية خيرُ مثال على ذلك: فقد استعارَت الفرنسيةُ هذه الكلمة في بداية ق 14م من الإيطالية (casaniere)، وكانت تُستعمَل بمعنى شخصٍ جاء من إيطاليا ليُقيم في فرنسا مُشتغلاً بإقراضِ المال، ثم تطوَّر معناها ليدل ابتداءً من ق16م على شخص يفضِّل البقاءَ في بيته. وأما الكلمة الإيطالية نفسُها التي كانت في الأصل تدلُّ على الشخص المُقرِض للمال (في تقاطُع محتمَل مع: "casa" بمعنى: منزل كما في بعض القواميس) فقد أُخِذَت بدورها من: "casana" التي كانت مُستعملةً في شمال إيطاليا (بمعنى دُكّان لشخصٍ يُقرِضُ المالَ)، وهي أيضاً مأخوذةٌ من: "casna" في لهجة البُندُقية بمعنى (كَوْمة من المال). ومصدرُ هذه الأخيرة مستعارٌ من التُّركية (خَزْنة)، وأصلُ اللفظ التركي نفسه مأخوذٌ من: (خَزينة) أو (خِزانة) العربية[5]. وهذا توضيحٌ مختصر لخطِّ السير الذي قطعته هذه الكلمة في رحلتها الطويلة من العربية إلى الفرنسية :

خَزينة / خِزانة ← خَزْنة (التركية) ← casna(لهجة البندقية) ← casana (شمال إيطاليا) ← casaniere (الإيطالية) ← casanier (الفرنسية).

الاقتراض من اللهجات العربية:

ثم إن الألفاظ العربية التي دخلت إلى الاستعمال الفرنسي، بصفة مُباشِرة أو غير مُباشِرة، لم تؤخَذ، من سِجِلٍّ لغوي موحَّد. بل إن قسماً منها كان من

5 – أما دلالةُ الكلمة الفرنسية (casanier.adj). على الشخص الذي يُفضِّل أو يحب البقاء في البيت فقد فُسِّر بأنه أتى من كون المُقرِضين الإيطاليّين المقيمين بفرنسا كانوا يُفضِّلون الاستقرارَ في مكان معيَّن لا يَبرَحونه حِرصاً على أموالهم وخزائنها في الغالب. انظر تفاصيل الموضوع في كتابنا: **قاموس الألفاظ الفرنسية ذات الأصل العربي أو المعرَّب** (قيد النشر).

الألفاظ الفصيحة التي نُقِلت من مؤلفاتٍ مختلفة ونصوص عربية مكتوبة، قديمة أو حديثة، سواءٌ في ذلك ما نقلته الفرنسية مباشرةً أو عن طريق لغات أخرى، بما في ذلك نصوص الترجمات اللاتينية القديمة للكتُب العلمية العربية، وقسماً آخر أتى من الألفاظ اللَّهَجية المَحلِّية وقد أُخِذت من مناطق مختلفة من البلاد العربية والإسلامية بالمشرق والمغرب. ويستوي في هذا القسم أيضاً ما أخذته الفرنسية بطريقة مباشِرة وما أخذته بواسطة لغات أخرى قديماً أو حديثاً.

والاقتراضُ من اللهجات والدَّوارج العربية لم يكن خالياً من الفائدة العلمية والتاريخية. بل كان فيه من الفائدة والمُتعة والطرائف الغنيّة بالمعلومات عن تطوّر العربية عبر الزمان والمكان، ما يُساعد كثيراً على وضع تاريخ شاملٍ ودقيق للمعجم العربي. ومن هذه المعلومات المفيدة ـ على سبيل المثال ـ أن الفرنسية احتفظت في غالب الأحيان، عند استعارتها لهذه الألفاظ، باسم المنطقة الجغرافية التي أُخِذَت منها وبطريقة نُطقها المَحلِّي في تلك المنطقة، والزمنِ الذي وقع فيه الاقتراضُ. كما احتفظت ـ في الغالب أيضاً ـ بمعانيها المتداوَلة في بيئتها الأصلية، كما ذكرتُ سابقاً. والأهم من كل ذلك أن المتن المعجمي المقتَرَض من اللَّهجات العربية قد احتفظَ لنا في حالات كثيرة بألفاظ لا وجود لها في القواميس العربية المتداولة ولا سيما في الفصيح منها، بل قد لا يكون لجزءٍ منها وجودٌ حتى في المستدرَكات التي وُضعت على هامش القواميس الفصيحة، كمستدرَكَي دوزي وإدوارد لين، وقد يصعب أو يندر أن نجده فيما بين أيدينا من مجاميع اللَّهجات التي تمَّ تدوينُها ونشرها لحد الآن. ومن هذا النوع النادر من الألفاظ أذكر على سبيل التمثيل لا الحصر:

Manouf : مَنوفي : (ثوب منسوب للمَنُوفية في مصر).

Medjidite : مَجِيدي: مَعدِن اكتُشِف في عهد السلطان العُثماني عبد المجيد الأول (ت 1861م) فنُسِبَ إليه.

melki : مالَقي (نوع من الأواني التونسية المنسوبة لمالقة الأندلسية).

Mérinos : مريني: نوع من الضَّأن مشهورٌ بصوفه الجيد (منسوب إلى المرينيّين في المغرب) الذي يُصدَّر للدول الأوروبية.

Mazagran : مَزَغْرانية : نوعٌ من القهوة الجزائرية المنسوبة إلى منطقة مزغران.

djebira: جَبيرة: مِحفَظَةٌ أو جِرابٌ من الجِلد يُعلِّقه الفُرسانُ في الجزائر على سُروج خُيولهم.

Tagarot : تاهَرْتي: نوع من الصقور العربية كان يُجلَب من مصر وأصلُه من تاهَرت بالجزائر. والكلمة غير واردة بمستدرك دوزي.

Nafé: نافِع، وهو اسمٌ مغاربي لنوع من النبات يُعرَف في المشرق بالأَنيسون أو الرّازيانج. و(النافع) بهذا المعنى لا وجود له في قواميس الفصحى وإنما ذُكِر في بعض الكتب النباتية المغربية واستدركه دوزي.

وضمن هذا النوع من الألفاظ المحلية التي قلَّ أن نعثر عليها في قواميسنا العربية العامة، نجد عدداً هائلاً من أسماء النبات والطيور والحيوانات والأسماك وغيرها مما تتغيَّر تسمياتُه في العادة من منطقة عربية إلى أخرى.

والطريفُ في الأمر أن نجد بين المقترَضات الفرنسية الحديثة من اللهجات العربية، ألفاظاً من أصل أجنبي إسباني أو إيطالي أو من غيرهما.

ومن أمثلة ذلك :

mercanti (بمعنى: مُرَفَّهٍ أو غَنيّ) ← دارجة الجزائر والمغرب (مِرْكَنْتي/ مِرْكانتي) ← الإيطالية: mircante بمعنى: تاجر.

moukère, mouquère ← الدارجة المغربية (مُوخيرا) بمعنى: امرأة ← الإسبانية: mujer.

moujingue ⟵ الدارجة المغربية (مُوشاشُو) بمعنى طفل أو ولد ⟵ الإسبانية: muchacho.

bousbir ⟵ العامية المغربية (بوسبير) بمعنى ماخور للدَّعارة ⟵ Prosper وهو اسمُ شخص أوروبي كان يملك المكان الذي بنَى عليه الاستعمارُ الفرنسي أول ماخور لجنوده بالدار البيضاء.

blanquil, blankil، بمعنى نوع من النقود الفضية ⟵ العامية المغربية (بلانكيل/ بلانكي) ⟵ الإسبانية: blanquillo.

Doubla بمعنى قطعة نقدية فضِّية كانت تُضرب بالجزائر أو تونس (دُبْلة) ⟵ العامية الجزائرية أو التونسية ⟵ الإسبانية: dobla.

ولقد قامت الدوارج العربية بدورها في الاحتفاظ ببعض الألفاظ الأجنبية المأخوذة من لغات البحر الأبيض المتوسط، فأصبحت بذلك واسطةً من الوسائط التي تسرَّبَ عن طريقها قدرٌ لا بأس به من هذه الألفاظ الأوروبية المتوسّطيّة إلى الفرنسية. ومعلوم أنه كان في وقت سابقٍ قد نشأَ في موانئ غرب الحوض المتوسط نوعٌ من الهَجين اللغوي (sabir) المُكوَّن من خليطٍ من الألفاظ المأخوذة من عدة لغات متوسِّطية: عربية، أمازيغية، إيطالية، إسبانية، فرنسية، لاتينية.. وكان هذا الهجينُ مستعملاً بمثابة لغةٍ تواصُلية (Lingua franca) يستعملها التُّجارُ والبحّارةُ في كل المدن الواقعة على ضفَّتي هذا البحر.

ـ 3 ـ

كيف تفاعلت الألفاظ المهاجرة مع بيئتها اللغوية الجديدة؟

يمكن، على وجه العُموم، تقسيمُ الألفاظ والتعبيرات التي انتقلت من العربية إلى الفرنسية، إلى ضربَيْن: الأول: عبارةٌ عن ألفاظ انصهَرت انصِهاراً كلّياً في بيئة اللغة التي هاجَرت إليها واستقرَّت في أحضانها. فتمَّ تَبنّيها واستيعابُها من

اللغة المُستقبِلة استيعاباً كاملاً. وبعضُها تناسَلَ منه ما تَناسَل من كلمات أخرى أفعالاً ومصادرَ وأسماءً وصفاتٍ التأمَت حولها أُسرٌ معجمية كاملةٌ من بَناتها وحَفَدَتها وكلِّ مُنتَسِبٍ إليها، فزاد ذلك من امتداد جُذورها ورسوخ قدَمها في هذه اللغة، وتعزَّزَ وجودُها بلا شك مع المدة الطويلة التي عاشتها تلك الألفاظُ المهاجرة في ظل بيئتها اللغويَّة الجديدة. إضافةً إلى عوامل أخرى سَهَّلت اندماجَها الكلّي، منها: الحاجةُ الماسّة التي اقتضَت استِجلابَها واقتراضَها لملء فراغات في مجالات معرفية وحقول دلالية مختلفة. ومنها: تلاؤُمُ شكلها وبِنيتها الصرفية والصوتية مع النظام اللغوي الفرنسي، أو قَبولُ خُضوعها لعدد من التغيُّرات والتحوُّلات التي جعلت منها ألفاظاً مُندَمِجةً في هذا النظام الجديد.

أما الضربُ الثاني فهو تلك الكلماتُ التي لم تستطع التكيُّف مع البيئة التي هاجرت إليها، ولم يتمّ هضمُها وتمثُّلها في اللغة المُستقبِلة. وعدم تكيُّفها هذا راجعٌ لأسبابٍ. منها: قِصَرُ مدة الإقامة في البيئة اللغوية الجديدة، ومنها: قلةُ الاحتياج إليها مما أدى إلى قلة تردّدها وتداوُلها على ألسنة المستعمِلين، ولا سيما ما كان منها معدوداً في الألفاظ التقنية أو العلمية والاصطلاحية، لأن هذا النوع من الألفاظ، عادةً ما يكون في كل لغةٍ عُرضةً للانقراض السريع أكثرَ من غيره، إذ بمجرد الاستغناء عن المسمَّى يُستغنَى تلقائياً عن الاسم. وقد يكون من الأسباب أيضاً عدمُ تلاؤم بنية هذه الألفاظ مع النظام اللغوي الفرنسي، أو عدم خضوعها لما خَضَع له غيرُها من التغيُّر والتحوُّل اللذين يُسهِّلان عملية الاندماج والانصهار مما يجعل استعمالَها مُستَصعَباً أو مُستَثقَلاً.

وإذا كان القسم الأول من الألفاظ العربية المهاجِرة قد استطاع الصمود وفرْضَ وجودهِ واستمراريتِه في المعجم الفرنسي الحديث والمعاصر، فاحتُفِظَ به حتى مع تقادُم عهده، فإن النوع الآخر، لم يكن وجودُه في اللغة الفرنسية إلا لوقت الحاجة إليه ثم مضَى بمضيِّ وقته مع بقية الألفاظ الفرنسية الأخرى

المتقادِمة من العصرين القديم والمتوسِّط، وبعضُه لم يكن وجودُه في الفرنسية إلا لمرحلة سريعة عابِرة، ثم أُهمِلَ وعُوِّض بلفظ فرنسي مشتقٍّ من صُلب اللغة الفرنسية أو مركَّبٍ من جُذور لاتينية يونانية. وقد حدث لنسبة كبيرة من الألفاظ العربية التي مرت في البداية بمرحلة اللاتينية العلمية عند ترجمة العلوم العربية إليها، أن أتَت عليها مدةٌ وهي على هذه الحال، ثم جاءت مرحلةُ استقلال اللغة الفرنسية عن اللاتينية العلمية وقيام الأكاديمية الفرنسية في ق 17م، وارتفاع الحِسّ القومي عند الفرنسيّين، ولا سيما بعد ثورة ق 18م، فاقتَضى الأمرُ فَرنَسَتَها ـ كما أشرتُ سابقاً ـ أي تحويلها من صيغتها التي كانت عليها في اللاتينية إلى صيغة مُلائمة للنظام اللغوي الفرنسي المستقل.

ومثل هذا فَعلوه أيضاً مع الأغلبية الساحقة من الألفاظ العربية التي جاءت بها البعثةُ العلمية المرافِقة لحملة بونابرت على مصر، والألفاظ الأخرى التي نقلها من بقاعٍ عربية مختلفة علماء آخرون ورحالةٌ ومستكشِفون باحثون من جنسيات أوروبية مختلفة كانوا يَجولون في العالم العربي والإسلامي لجمع كل ما يفيدهم من معلومات في مختلف المجالات. فقد ترجموا بعضها إلى لغتهم، وأدخلوا على الأخرى تحويراتٍ غيَّرت كثيراً من ملامحها، وتخلَّصوا مما بقي دالاً على أصله العربي.

أما التحوُّل في الصِّيغ التلفُّظّية صوتاً وصرفاً، فهو أمرٌ واضح من خلال كثرة البدائل والمُتغيِّرات (variantes) الموجودة لكل الكلمات المُستعارة تقريباً. وقد بلغ التحوُّل الذي أصاب بعض الألفاظ درجةً من التعقيد صار معها من الصَّعب على الباحث اكتشافُ أصول هذه الكلمات، مما أوجدَ حولها نقاشاً طويلاً وتضارباً بين الباحثين. إذ لم يكن من السهل ـ مثلاً ـ أن يكتشف المرءُ لأول وهلة أن كلمة: "harda" في الفرنسية مأخوذة من:(حَرْبة)، وأن: "haras" في الفرنسية والإسبانية والبرتغالية جاءت من (فرَس)، وأن "fabrègue" جاءت من (حَبَق)،

و"alfange" جاءت من (الخِنجَر)، و"alfatida" من (الحَديدة)، و"aufin" من (الفِيل)، و"anforge" من (الخُرْج)، و"chataf" من (خُطاف) (نوع من الطيور)، و "muserat" أو "migerat" جاءتا معًا من (مِزْراق): نوع من الحِراب، و"zaphr" جاءت من (صَقْر)، و"raquette" من (راحة اليد)، و"bodrat" من (بُردة) باستعمال القلب المكاني، و"haraha" أو "hara" من (قَرْعَة)، و"harde" من فَرْض أو فَرْدة... والقائمة طويلة.

الأخطاء اللغوية والتَّخصيب المعجمي :

وهناك من التغيُّرات اللفظية ذات الطبيعة الصوتية أو الصرفية أو الكتابية، ما لا يمكن اعتبارُه إلا مجرد نتيجة من نتائج الأخطاء التي يقع فيها ناقِلُو هذه الألفاظ من العربية إلى الفرنسية.

وعادةُ المعجميّين، حين يتطرَّقون إلى عوامل التوليد المعجمي وإثرائه، أن يقتصروا على ذكر الأمور التقليدية المتداولة في كتُبهم كالاشتقاق والنَّحت (وهو فرع من الاشتقاق) والتعريب والاقتراض والارتجال. ولكنهم لا يُشيرون في الغالب إلى هذا العامل الذي يمكن أن نشاهد آثارَه بوضوح في كل لسان من الألسنة. والمقصودُ هنا هو تلك الألفاظ التي تظهر وتنتشر بمَحض المصادفة والعَشوائية نتيجةَ أخطاء وانزِلاقات وتحريفات تتعلَّق بالدالِّ أو المدلول مما يقع لبعض مُستعمِلي لغةٍ معيَّنة، لأسباب كثيرة منها: سُوءُ الفَهم، إذا تعلَّق الأمر بالمعنى، أو سوء القراءة والنقل، إذا تعلَّق الأمر بمكتوب أو منسوخ، أو سوء التقاط واستماعٍ لما يُقال، إذا تعلَّق بما هو شفوي، أو عدم القُدرة على النُّطق بصوت أو أكثرَ في كلمة أو كلماتٍ عند مُستعمِلٍ حديثِ العهد بلغة غيرِ لغته. وهنا يجب استحضارُ الكثير من الكلمات التي إذا تأمَّلتَها في لغةٍ معيَّنة وجدتَ أن أصل نشأتها لا يعود لسبب آخر سوى خطإ في الاستعمال راجع إلى شيء مما ذكرنا. فالجَذْب والجَبْذ في العربية، ليسا في اعتقادي إلا متغيِّرين لكلمة واحدة أخطأ أحدُهم ذات يوم في نطقها أو نقلها، فإذا بها تتحوّل مع الزمن إلى لفظ

جديد يتولَّد وينشأ عن طريق الخطإ والمصادقة لا غير. ومثلُ ذلك يمكن أن يُقال عن دَشيش وجشيش، وحَرشف وخرشف، وقُرطُمان وهُرطُمان[6]... وهلمَّ جرّاً. وموضوعا التصحيف والتحريف، ولحن العامة والخاصة، معروفان بشكل جيد في تاريخ اللغة العربية وأدبيّاتها ولا يحتاجان سوى إلى ربطهما بموضوع التَّخصيب المعجميّ. وعلمُ اللغة المعجمي التاريخي التطوّري، لا ينظُر عادةً إلى هذه الانحرافات أو الانزلاقات من الجانب الذي يهتمُّ به الصَّفائيون والتَّصويبيُّون الحريصون على تنقية اللغة مما يشوبُها، ولا حتى من وجهة النظر التعليمية والبيداغوجية التي تُعنى بتلقين الوجه الأعلى أو «الصحيح» من اللغة، وإنما ينظر إلى مآلات هذه الظاهرة التي تسمَّى « خطأً وانحرافًا أو لحناً» عند هؤلاء وأولئك. فهي عندما يشيع تداوُلُها بين المستعمِلين تتحوَّل من وجهة اختصاصهم إلى مجرد تغيُّرات وتحوّلات وتطوّرات طبيعية لا تسلم منها لغةٌ من اللُّغات. وكلُّ معجم في كل لسان بشري، لو بحثتَ في تاريخ ألفاظه ووحداته المعجمية، لوجدت أكثرَه عبارةً عن أشكالٍ وصيغ أو مُتغيِّرات وبدائل جديدة لألفاظ قديمة. فالتطوُّر لا ينشأ فقط بإحداث ألفاظ أو معانٍ لم تكن حسب الأساليب «الشرعية» والقواعد« المَرعية»، وإنما يحدثُ أيضاً بسبب ما طرأ على الكلمات القديمة من أخطاء غير مقصودة، وفَلَتاتِ لسان وهفَواتِ أقلام، في نُطقها والتَّلَفُّظ بها أو في كتابتها ونقلها من كتاب إلى آخر أو من لغة إلى أخرى.

حاصلُ القول، إذن، أن أحد الأسباب التي أدَّت إلى ظهور بدائل كثيرة للكلمة الواحدة عند انتقالها من العربية إلى الفرنسية أو إلى غيرها من اللُّغات الأوروبية، أمران على جانب كبير من الأهمية والوضوح :

أولهما: كثرةُ الأخطاء التي دخلت على الكلمات العربية عند اقتراضها من العربية. ولا سيما إذا كانت عملية الانتقال قد مرَّت بمراحل متعددة، كأن تكون انتقلت في البداية إلى اللاتينية ومنها إلى لغة أوروبية فرعية كالإسبانية

6 – نوع من النبات.

أو الإيطالية، قبل أن تصل إلى الفرنسية. بل أحياناً يكون مصدرُ الخطإ الأول من النُّسَخ الخطّية للكُتُب العربية قبل عصر الطباعة. ولا سيما إذا كانت هذه الكلمة معرَّبة من لغة أخرى، فينقلُها ناسِخٌ بوجه وينقلُها آخر بوجه ثان، ثم يأتي الناقلون من الدرجة الثانية أو الثالثة وما بعدهما، بما في ذلك الناقلون للكلمة من لغة إلى أخرى، فيُضيفون إلى سلسلة الأخطاء حلقاتٍ جديدة، إلى أن تصبح المسألة في غاية التعقيد. ومن الطرائف التي تستحق أن تُذكَر هنا أن لفظ: "git / ghit" الدال على اسم نبات في البرتغالية، جاء من أصل عربي غير مؤكَّد، لكن دوزي وأنجلمان اعتقدا أن هذا الأصل هو (شميث) المذكور في كتاب *المستعيني في الطب*[7] منقولاً عن الزهراوي بمعنى كَمُّون أسود. ولكن الراجح عندي أن هذه الكلمة العربية (أو المعرَّبة على الأصح) إنما هي بدورها مصحَّفة في كتاب *المستعيني* عن صيغة أخرى هي (شِبْث) التي قد تُكتَب في نسخ خطية عربية أخرى بصيغة (شيث) بالياء لا بالباء. وقد احتفظت لنا القواميس العلمية الفرنسية بصيغة (chebet) القريبة إلى الأصل العربي الصحيح.

ومما يزيد في أخطاء النقل ضعفُ إلمام الناقلين باللغة العربية ومعرفتُهم المحدودة بها، وقد لاحظنا هذا حتى في أكبر القواميس الفرنسية وأوثقها وأوسعها شُهرةً. المهم أن الصيغ الناشئة عن طريق الخطإ والتحريف، تتحوَّل مع مرور الوقت إلى كلمات جديدة لا أصل لها سوى ما ذكرنا. ثم ما تلبث أن تأخذ مكانَها الطبيعي في المعجم، وتتحوّل شيئاً فشيئاً إلى مترادِفاتٍ عادية يتعامل معها المُستعمِل العادي على أنها من فصيح اللغة وصَميمها، ولا يهمه في شيء أن يبحث عن فصلها وأصلها، ومن أين نَشأتْ وكيف وصَلت. فهذا، من وجه آخر، سبَبٌ من أسباب تكاثُر المترادفات في اللغات ومنها العربية. وعلى الرغم من الجهود المُضنية التي قد يبذُلُها التَّصويبيّون في محاربة هذه الظاهر: ظاهرة

7 - **المستعيني في الطب** ليوسف بن إسحاق المعروف بابن بكلارش اليهودي ت 500هـ.

تسرُّب اللحن والخطإ إلى اللغة، فإن الخطأ يُعمِّق جذورَه مع الوقت، ويُثبتُ وجوده، ويُزاحِمُ أصولَه، أحبَّ من أَحبَّ وكره من كَرِه. ولقد صدقَ من قال: إن خطأ الأمس هو صوابُ اليوم.

على أن هناك نوعاً طريفاً من الأخطاء التي تُزوِّد المعجم اللغوي بألفاظ لا أصل لها سوى كونها من أخطاء الترجمة من لغة إلى أخرى. وأحسنُ مثال على هذا هو تلك الترجمة التي قام بها قاموس إليوس بُقطُر (E.Bocthor) لكلمة: "artichaut"، إذ وضع مقابلَها كلمةَ عربية هي (أرضِي شَوْكي) أو (أَردِشَوْكة). ومنذ ذلك الحين انتشرت هذه الكلمةُ الأخيرة في المشرق العربي مع أنه ـ فيما قيل ـ لا وجود لها في العربية ولا أصل. وكان أول من نبَّه على ذلك هو مارسيل دوفيك الذي رفضَ الكلمةَ وقال: إنها ظهَرت أولَ ما ظهَرت في هذا القاموس وليس لها وجودٌ في مكانٍ آخر. والمقصودُ أنها غيرُ موجودة في القواميس السابقة ولا في كتُب النبات العربية، وإنما تمَّ تناقلُها بعد ذلك في بعض القواميس اللاحقة كتكملة دوزي و*محيط المحيط* للبستاني. وهذا المثال يصلح أيضاً للاستشهاد به على أهمية دراسة الألفاظ الفرنسية ذات الأصل العربي في مجال التأريخ للمعجم العربي. فتاريخُ ظهور الطبعة الأولى لقاموس بُقطُر (سنة 1926م) يُعتبر شهادةَ ميلادٍ لكلمة (أرضي شَوكي) في اللغة العربية.

والأمرُ الثاني: هو أن تقع استعارةُ الكلمة الواحدة مراتٍ مُتكرِّرة، وفي كلِّ مرة يأخذُها المُستعيرُ بصيغة معيَّنة. ومن الأمثلة عليها تلك الصيغ الفرنسية المتعددة الناتجة عن اقتراض كلمات كثيرة التداول مثل: (كُحْل) و(كيمياء) و(زئبق) و(رباب) و(كافر) و(قهوة) و(مثقال) و(قِنطار) و(قُطْن)... وغيرُها كثير. ففي هذه الحالة أيضاً تجد المعجم الفرنسي ـ مثلاً ـ قد امتلأ بكثرة الصيغ التي يسقُط بعضُها ويُهمَل تلقائياً، ولكن بعضَها الآخر يظل ثابتاً ويفرض وجودَه على مستعمل اللغة لأنه يتحوّل بكل بساطة من مجرد بَديل أو متغيِّر (variante) لكلمة موجودة إلى مرادف لها. فكلمة "chardel" الفرنسية أصبحت تُعتبر مُرادفاً لصيغتها الأخرى "cardel" (وكلاهما مأخوذ مع صيغ أخرى من:

(خَرْدل) العربية. وكلمتا: "charub" و"charnubi" أصبحتا مجردَ مُترادفين لكلمة: "caroube"، وأصبحت "artichaud" مرادفةً لصيغتها الأخرى: "artichaut"، و"kohel" مجردَ مرادفٍ للفظ: "khol".... أما كلمةُ (قيثارة أو قيثار) فقد استعارتها الفرنسيةُ لأول مرة في ق13م بصيغة: "quitarre"، ثم ظهرت سنة 1349م بصيغة: "guitare"، وسنة 1360م: بصيغة: "guitarre"، ثم عادت الفرنسية لاستعارتها سنة 1780م بصيغة: kitsarat، وفي سنة 1863م أعادت اقتراضَها عن طريق الجزائر وتونس بصيغة: "kuttra"، وفي سنة 1880م بصيغة: "kouitara"، وفي فترة من ق19م بصيغة: "kaïtra". فصارت كل هذه الصيغ من المترادفات مع أنها في الأصل مجرد بدائل ومتغيِّرات.

التغيُّرات الدَّلالية :

تتوزَّع الألفاظ المهاجرة إلى اللغة الفرنسية من حيث حقولُها الدلالية المختلفة، على مجالات واسعة جداً تشمل كل الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية والعسكرية، والاطلاعُ عليها يُمكِّننا بالطبع من التعرف إلى الجوانب الكثيرة التي ساهمت بها العربيةُ في إغناء المعجم الفرنسي وإثرائه. ففيها ألفاظٌ من شتى أنواع العلوم كالفَلَك، والرياضيات والهندسة والطب والجراحة والتشريح والكيمياء والصيدلة والموسيقى، وفيها أيضاً ألفاظ من عالم الحيوان والحشرات والنبات والطير والأسماك والعُمران والآلات والأدوات، ومن الصناعة والاقتصاد والتجارة والمالية، والحِرف والمِهَن والفلاحة واللباس والألفاظ العسكرية والإدارية وأسماء الأطعمة والأغذية والأشربة والنقود وأسماء الموازين والمكاييل والمقاييس والألوان، بالإضافة إلى ألفاظ دينية كثيرة، وما يتعلق بجوانب أخرى من التاريخ والحضارة والثقافة والحياة العامة.

وكما مَسَّ التغيُّر والتحوُّل الكثيرَ من صيَغ الألفاظ وصُوَرها التلفّظية والكتابية عند انتقالها من العربية إلى الفرنسية وسواها من اللُّغات الأوروبية، مَسَّ أيضاً الكثيرَ من دلالاتها ومعانيها، بأشكال ونِسَب متفاوتة. لكن، إلى

جانب ذلك ظلَّت هنالك فئة أخرى من هذه الألفاظ محتفظةً بدلالتها في اللغة المُقرِضة لارتباطها بأشياء ومدلولات محدَّدة يصعب تغييرها. والتحوُّل الدلالي على العُموم، عادةً ما يكون إما بتقييد المعنى وتضييق حدوده أو توسيعه وتفريعه واستعمال أساليب بلاغية معروفة في ذلك كالتشبيه والاستعارة والمجاز والكناية... إلخ.

وبجانب الحالات العامة التي لا تحتاج إلى ضرب الأمثلة على ما وقع فيها من تحوُّل دلالي، هناك كلماتٌ نجد في طريقة تحوُّلها من المعنى الأصلي في العربية إلى المعنى المُكتَسَب في الفرنسية، قصصاً طريفة تستحقُّ أن تُحكَى وتُروَى. فقد كان من أمر كلمة (brèle) ـ على سبيل المثال ـ التي اقتُرِضَت من العربية (بَغْل) عن طريق المغرب وأصبحت تُستعمل بمعنى: شخص بَليد ومُعانِد، أو غير كُفءٍ، أن الاحتلال الفرنسي للشمال الإفريقي حين أنشأَ فرقة عسكرية من الأهالي المغاربة والأفارقة السُّود (تسمى فرقة القَوم : goum)، كانت تُزوَّد بالبِغال لصُعود الجبال والأماكن الوَعرة التي لا تستطيع الدّباباتُ الوصولَ إليها. ولذلك كان الجنودُ الفرنسيون يقولون فيما بينهم على سبيل السُّخرية: إن الذي رَبِحَ حربَ الرّيف ضدَّ محمد بن عبد الكريم الخطابي هو البَغْلُ وليست الدّبابة، ولذلك أطلقوا على هذه الفرقة ــ على سبيل الاستهزاء أيضاًـ عبارة: *"* Royal ***Brèle*** Force" *(= القوة المَلكية البَغْلية)*.

أما قصة كلمة: "mazagran" فتتلخص في أن الجنود الفرنسيّين كانوا قد حاصَروا سنة 1840م بلدةَ مَزَغْران الجزائرية، ضد المُقاومين، ثم استولَوا عليها بعد ثلاثة أيام فقط. فصاروا يشبِّهون السرعة الفائقة التي سيطروا بها على البلدة بالمدة القصيرة التي يمكن أن يستغرقها احتساءُ كأسِ قَهوةٍ في تلك البلدة. ومن ثمَّ صاروا يتداولون عبارةً تقول: « ***Un café bu à la va-vite comme à Mazagran en 1840*** = قَهوةٌ شُرِبت على عَجَلٍ كما في مَزَغران سنة 1840».

- 4 -

رحلةُ البحث عن العربيات المُغتَرِبات:

وظيفةُ القواميس التأثيلية، كما هو معلوم، هي محاولةُ إرجاع الكلمات المُقترَضة الموجودة في اللغة المدروسة إلى لغاتها الأصلية التي جاءت منها، وفي الغالب لا يتوقف الباحث عند أقرب لغة عبرَت منها الكلمةُ المهاجِرة إلى مُستقرِّها الجديد، ولكن عادةً ما يذهب إلى أبعد نقطة يمكن الوصولُ إليها ويعمِّق الحَفْرَ والتَّنقيب في الطبقات السُّفلى للكلمات في محاولة لكشف منابتها وعروقها المتشابكة، وقد ذكرنا ذلك في بداية الحديث. وهذه العمليةُ محفوفةٌ بالمخاطر والمغامرات والمُنزَلَقات وكثيراً ما تزِلّ فيها الأقدامُ، ولا سيما حين تَشِحُّ الأدلةُ المادية والتاريخية، فيُلجأ إلى إعمال الظنِّ والتخمين. وأحياناً تتدخّل عناصر ذاتية في الموضوع فتنسِفه نسفاً وتُخرِجه من باب العلم والموضوعية إلى مجالات أخرى فيها شيءٌ من الخيال والإيديولوجية والأسطورة. وهذه أمثلةٌ على بعض المُنزَلقات التي رَصَدناها خلال مُواكبتنا الخاصة للألفاظ الفرنسية ذات الأصل العربي:

التأثيل العليل قد يتحوَّل إلى تضليل :

من ملاحظاتنا على القواميس التأثيلية الفرنسية أنها كثيراً ما تتعامل مع الألفاظ التي سبق للعربية أن اقترضَتها من لغات أخرى (وهي التي يُطلق عليها عادةً اسمُ المُعرَّبات) قبل أن تستعيرها الفرنسية عن طريق العربية، بنَسف هذا الجِسْر الذي عبَرَت من خلاله تلك الألفاظُ إلى أن وصلت إلى المعجم الفرنسي، فتحكم على هذه الكلمة أو تلك بأنها يونانية أو تُركية أو فارسية أو هندية أو لاتينية.... متجاهلةً المرحلة العربية لهذه الكلمات وما كان لها من دورٍ ووظيفة، ومُوهِمةً بأن الفرنسية أخذَتها مباشرةً من تلك اللُّغات، بينما هي مجلوبةٌ إليها عن طريق العربية، أي من معجمها المعرَّب. فكلمة (إِسفاناخ / سَبانِخ) معرَّبة قديماً عن الفارسية، ولكن اللُّغات الأوروبية بما فيها الفرنسية (épinard) لم تأخذها عن الفارسية مباشرةً وإنما عن طريق اللاتينية العِلمية (اللاتينية الوُسطى) التي

نقَلتها من العربية عند ترجمة الكُتب العلمية. وكلمة (saroual, sarouel) ذات أصل فارسي كما يقولون، لكنها من المعرَّبات القديمة، ووجودها في الفرنسية، إنما جاء إليها في زمن متأخِّر جداً (ق19م) عن طريق عربية الشمال الإفريقي (سِرْوال)[8] لا من الفارسية مباشرة. وكلمة (élixir) يونانية الأصل لكن اللغات الأوروبية ومنها اللاتينية أخذتها من العربية (الإكسير) في عصر ترجمة العلوم وليس من اليونانية مباشرةً.

ومن هذا القبيل أيضاً أنك تجد في بعض هذه القواميس مَن يُصنِّف الكلمات الآتية ضمن خانة الألفاظ التركية دون الإشارة إلى أصلها العربي قبل هجرتها ودخولها إلى التُّركية: (minaret, café, cadi, fez, mosquée, ottoman, sorbet, raia, sultan,)[9]، ويصنِّف (arsenal, artichaut, baldaquin, bocal, carmin, fanal, faquin, satin, sirop)[10] ضمن الألفاظ الإيطالية الأصل دون اعتبار مرحلتها العربية التي مرَّت منها، ويعتبر (laquais, matamore, réalgar, mousson, fanfare)[11] من أصل إسباني دون ذكر المنبَع الذي استَقَت منه الإسبانية. فعند التأثيل والتَّرسيس لا بدّ من إرجاع الكلمات إلى مَنبعها الأصلي أو ما يُستطاعُ الوصول إليه، لا إلى أقرب باب دخلت منه. ولا يجوزُ إطلاقاً لمؤرِّخ المعجم ومُؤثِّله أن يُسقِط من مراحل تطور الكلمات ما شاء ويُبقي على ما شاء. فإن تمَّ ذلك عن قصد مُبيَّتٍ فهو تضليلٌ وتزييف، وإن تمَّ عن حُسن نية فهو قُصورٌ وتقصير، وحتى لو كان مع نية الاختصار فهو اختصار مُخِلٌّ.

ولا شك في أن الحضارة العربية كان لها دورُ الوسيط في نقل الثقافات والمعارف والعلوم القديمة إلى أوروبا التي بَنَت عليها حضارَتَها الحديثة، ولكن

8 - القواميس العربية الفصيحة تستعمل الكلمة بصيغة (سراويل) وتجمع على (سَراويلات)، وفي المغرب والجزائر تُستعمل بصيغة: (سِروال) والجمع: سراويل.

9 - مَنارَة، قهوة، قاضٍ، فاس، مسجد، عثمان، شُربة، رعية، سلطان.

10 - الصنعة (أو الصناعة)، خَرشُف، بغدادي، بوقال، قرمزي، فنار، فقيه، زيتوني، شراب (شروب).

11 - القائد، مطمورة، رهج الفار، موسم، ثرثار.

الأمر لم يقف عند ذلك، وإنما تجاوزَه إلى نقل الألفاظ والاصطلاحات والمفردات اللغوية المرتبطة بكل تلك المعارف والفنون والمفاهيم العلمية والثقافية. وبعبارة أخرى لقد نُقِلت كثيرٌ من المُسَمَّيات مع أسمائها وليست مجردة عنها. كما قامت اللغة العربية من جانب آخر، وهي اللسانُ المعبِّرُ عن هذه الحضارة العربية الإسلامية والوعاءُ الذي استوعَبَها وحَفِظَها، بدور الوسيط في نقل ألفاظ لغاتٍ كثيرة ولا سيما اللُّغات الشرقية، إلى اللُّغات الأوروبية بدءاً باللاتينية ذاتها، ولذلك لا يمكنُ أن يتساهل التاريخُ في المطالبة بحقّه في حالة القَفز عن المرحلة العربية للكلمات المُستعارة إلى اللغات الأوروبية وحذفها من تاريخها واعتبارها كأن لم يكن لها وجودٌ ولا حُضور، فذلك جِنايةٌ في حق العِلم والتاريخ، سواءٌ كان عن جهل أو تجاهُل. ومن نتائجه السلبية طَمْسُ الدَّور الحضاري الذي قامت به العربيةُ لغةً وثقافةً في نقل العلوم والمعارف من أمة إلى أخرى.

وأكثر ما كنا نصادفه، في طريق بحثنا عن أُثول الكلمات، الاعتقادُ المُسَيطِر على أذهان كثير من الغربيّين، وهو أن اللفظ إذا وجدوا له نظيراً في اللاتينية أو اليونانية سارعوا إلى رَدِّه بشكل آلي إلى هاتين اللغتين من غير نظر في الأصل الذي أخذَتا منه، وكأن اللاتينية واليونانية هما أمُّ اللغات كافة. أما إذا وجدوا لفظًا له نظيرٌ أو شبيهٌ في العِبرية فهم لا يكلِّفون أنفسَهم مشقةَ النظر فيما تشترك فيه العبريةُ مع العربية وغيرها من العُروبيات أو الجَزَريات (لغات الجزيرة العربية القديمة) الأخرى، وإذا أحوَجتهم الضرورةُ إلى الاعتراف بالأصل (السامي) لكلمة من الكلمات أصبح المقصود بالسامي عندهم هو العِبْري دون غيره. ولحسن الحظ أننا كنا أحيانا نعثر على مواقف لبعض الغربيّين النُّزهاء اتَّسَمت بالشجاعة وكشفَت عن وجه الحقائق المغلوطة. وفي مقدمة هؤلاء العلماء الذي أبانوا عن شجاعة في الإدلاء بشهادة الحق ألكسندر ثييس (A.Théis) في قاموسه النباتي، فكان لا يجد خطأً من هذا النوع إلا ونبَّه عليه وفضح ما فيه من تزييف. ومن شهاداته الجريئة التي قلَّ نظيرُها بين الأوروبيّين في ذلك العصر

(بداية ق19م)، ما كتبه عن كلمة (ebenum) إذ قال: «هذا اللفظُ مُلَتَّنٌ (latinisé) من أصله العربي وهو : أُبْنُوس: ãbnous كما في كتاب جوليوس [12] ومنه جاءت : "ébène" الفرنسية. وقد أعطى بوشار (Bochard) في كتابه: "Hierozoicon" أصلاً عِبرياً لا يمكن قَبولُه. *لقد كان هنالك حماس ديني زائد استمر لمدة طويلة، مما أدى إلى اعتبار العبرية هي أصل اللُّغات كلها في العالم. ولكننا اليوم، مع احترامنا الكبير لهذا المبدإ، لا يمكننا أن نستمر في تقبل كل نتائجه* ».

التأثيل بين الحقيقة والإيديولوجية والأُسطورة:

ألقى الصراعُ الديني والحضاري بين الشرق العربي الإسلامي والغرب المتشبِّع بالثقافة الدينية المسيحية اليهودية الذي أَجَّجته سلسلةٌ طويلة من الحروب (كالحروب الصليبية وغيرها)، بظلاله على العمل المعجمي، وانعكَسَت آثارُه النفسية على الطريقة التي استعملها بعض القاموسيين في تأثيل جملة من الألفاظ. ولنا على ذلك بعض الشواهد والأمثلة التي تفضح إسقاطَ هذه الخلفية من الصراع الثقافي والديني على العمل اللغوي المعجمي الذي تشبَّع بهذا النوع من الخطاب الناشئ في البيئة التي أنتجته.

من ذلك تخبُّط بعض المعجميّين في تأثيل لفظ: "sarrasins" التي أصبحت تُطلَق على (الشرقيّين) ويُقصَد بهم العرب والمسلمون عموماً الذين جاءوا فاتِحين من الشرق وخاضوا سلسلة حروب دينية ثقافية مع الغرب. فمنهم من قال إن أصل الكلمة من اليونانية: "sarakénoi" التي تَعني حرفيًا (ساكِني الخيام) ويقصدون العربَ الرُّحَّل، وفي ذلك لَمْزٌ وتعريضٌ بهؤلاء العرب المسلمين الذين لم يكونوا في نظر المجتمعات الغربية سوى رُعاةِ غنَمٍ وسكانِ خيامٍ لا سابِقَ عهدٍ

12 – المقصود بكلام جوليوس وثييس هو أن اللاتينية لم تأخذ الكلمة عن اليونانية مباشرة ولكن عن طريق العربية. على أن الكلمة في جذورها الأولى ليست يونانية وإنما أخذتها اليونانية نفسُها من أصل عروبي سامي أو شرقي (راجع تفاصيل الكلام حول هذه الكلمة في كتابنا: ***قاموس الألفاظ الفرنسية***...).

لهم بالحضارة والمَدنية. وهناك من ذهب إلى أن أصل الكلمة مُحرَّفٌ من اللاتينية: (saraceni) المأخوذة من كلمة (سارِق) العربية، وعزَّزَ رأيَه بالقول إن اللاتينَ سَمّوا العربَ بهذا الاسم لأنهم كانوا معروفين بالغارَة والسَّرِقة. وفي قواميس أخرى أن العرب سُمّوا بهذا الاسم (sarrasins) لأنهم زعَموا الانتسابَ إلى (سارَة) الزوجة الحُرّةِ لإبراهيم عليه السلام، وقد كانوا يَخجَلون من الانتساب إلى (هاجَر) أُمِّ إسماعيل لكونها ـ حسب الزعم اليهودي ـ مجرد أَمَةٍ أو خادمة ل (سارَة). وحسب هذا التأويل الأخير فإن الكلمة مؤلفة من: (Sara + sins). وفي الوقت نفسه نجد القواميس تُصرِّح بأن كلمةَ (agaréen,nnes) تعني (الهاجَرِيّين) بمعنى العرب من نَسل إسماعيل الذين سُمُّوا بذلك لكونهم ينحدرون من نَسْل (هاجَر)، مع ما تحمله هذه الكلمة من معنىً قَدْحي تأثُّراً بالنظرة العَدائية التي نشرها اليهود قديماً عن العرب في المجتمعات الغربية، وهي أن هؤلاء العرب المسلمين (الهاجَريّين) ينحدرون من نَسل (هاجَر) التي هي من طبقة أدنى من طبقة (سارَة) التي ينحدر منها بنو إسرائيل، في تأصيلٍ واضح لأسطورة التفوُّق العِرقي التي وُظِّفت أسوأ توظيفٍ طيلة الحِقَب التاريخية الماضية. وهكذا يمتزج العمل التأثيلي التأريخي في ذهن المعجمي بالأسطورة والإيديولوجية وبعض المعتقدات الدينية الخاصة.

ومن الأمثلة الأخرى التي لا تخلو من رواسب الصراع الديني والثقافي بين الشرق والغرب، لجوءُ بعض القاموسيّين إلى شَحْن كلمة (avanie) بمعانٍ تختزنُ عُمقَ هذا الصراع. فحين يلجأ بعضهم إلى تأثيل الكلمة بإرجاعها إلى لفظ (هَوان) تارةً أو (إهانة) تارة أخرى، فقد لا يكون ذلك من باب المصادفة أو الموضوعية العلمية، وإنما مَردُّه إلى تشبُّع هؤلاء اللغويّين المؤثِّلين ـ ولو بدون شُعور ـ بالنظرة السّلبية التي كانت شائعة في الغرب عن خُصومهم التقليديّين في الشرق وهم الأتراكُ العُثمانيون. فقصةُ هذه الكلمة هي أنها كانت تُطلَق عند

العُثمانيّين على ضَريبة تجارية أو غرامة ثقيلة كانوا يَفرضونها على بعض التُّجار الأوروبيّين الذين يَستغفلون السلطات الضريبية ويلجأون إلى حِيَلٍ للإفلات من أداء المُكوس أو الضرائب المفروضة على البضائع العابرة لحُدودهم. ومن هنا كان أصلُ إطلاق الكلمة هو (خَوَّان) أي خائن للأمانة. ولكن التُّجار المتهرِّبين من الضرائب أصبحوا يُشيعون في بلدانهم أن العثمانيّين يُلزِمونهم دفعَ ضريبة خاصة بهم قصد إهانتهم واحتقارهم باعتبارهم نصارى. وبناءً على هذا التصوُّر فُسِّرت الكلمة بأنها مأخوذة من (هَوان) أو (إهانة)[13]. والذي يؤيد ما ذهبنا إليه أن فئة أُخرى من القواميس الفرنسية التي تحلَّت بالموضوعية، قد نصَّت على اللفظ الأصلي الذي جاءت منه كلمة (avanie) وهو (خَوّان) من:خائِن.

ومن قبيل التشويه التاريخي الذي يجعل من الـتأثيل طريقاً للدَّسِّ والتضليل الإيديولوجي ما ورد في واحد من أكبر القواميس الفرنسية الحديثة وأشهرها حين أراد تأثيل كلمة (mellah) المأخوذة من (مَلاّح) العربية وهو الحي اليهودي في المدن المغربية العتيقة، فقال إن سببَ تسميَّة هذا الحي اليهودي ب (المَلاَّح) هو أن اليهود كان يُفرَض عليهم أن يقوموا بوضع المِلْح في رؤوس الجُناة المَحكوم عليهم بالإعدام قبل تعليقها على أبواب المدينة، وهذا التأويل السَّخيف منسوخٌ من الكلام الذي كان قد رَوَّجه هُنري لامارتينيز في بداية الاحتلال الفرنسي للمغرب، والرواية الصحيحة المتداولة حول سبب إطلاق اسم المَلاَّح على الحيّ اليهودي في المغرب هي أن أول حيٍّ من هذا النوع بُنِي في المغرب كان بمدينة فاس (ق13م) أيامَ الدولة المَرينية (1244 ـ 1465م). وصادَف أن المكان الذي بُنِيَ فيه الحيُّ اليهودي الخاصُّ كان في الأصل مكاناً لتجميع المِلْح قبل تَصديره للجِهات الأخرى في البلاد. وبعد ذلك أصبح اسمُ الملاّح يُطلَق ـ من باب التوسُّع ـ على هذا الحيّ الذي سَكَنه اليهودُ وعلى كلّ حيٍّ جديد بُنِيَ

13 – راجع تفاصيل الموضوع في مدخل : avanie من قاموسنا هذا.

بعده في كل مُدُن المغرب. والعادةُ أن يكون مقرُّ حيِّ اليهود في المغرب قريباً من قصر السُّلطان لضمان الأمن والحماية لسُكّانه.

ـ 5 ـ

دورةٌ تاريخية كاملةٌ وعَوْدٌ على بَدءٍ

وفي ختام هذا البحث، أعود إلى ما سبقَت الإشارةُ إليه من وجود نوع من الألفاظ يمكن أن نقول عنها إنها عاشت دورةً تاريخية كاملة، فكانت حياتُها مليئة بالتَّقَلُّبات والمغامرات والانتقال بين محطات وبيئات لغوية مختلفة، بدأت بالخروج من موطنها الأصلي في ظروف معيَّنة، ثم ما لبثت، ولو بعد قرون، أن انتهت بالعودة إليه، لكن في صورة مُتَنكِّرة وملامِح متغيِّرة فلم يتعرَّف عليها الكثيرون واعتقدوها كلماتٍ أجنبية دخيلة وتعاملوا معها على هذا الأساس، مع أنها من أصل عربي. ولم تلبث قواميسُنا الحديثة التي أرادت أن تُزيِّن صدرها وتُلَمِّع مظهرَها ببعض الكلمات المُحدَثة والمعاصِرة أن احتضَنت فئةً منها وصنَّفتها تحت خانة المُعرَّب المُحدَث، وما لم تحتضنه هذه القواميسُ أصبح رائجاً في غيرها من الأدبيات المكتوبة والدوارج واللهجات العربية.

وهذه أمثلةٌ من هذه الكلمات التي تكشِف لك كل واحدة منها عند دراستها التاريخية التفصيلية، ما تختزِنه في جوفها من قِصصٍ وحكايات لا تخلو من المُتعة والطرافة والتشويق. ونقدِّمها هنا بطريقة جدّ مختزَلة تصوِّر المراحل الثلاث الأساسية في حياتها دون الدخول في التفاصيل، وهي: وضعها العربي في البداية، ووضعها في الفرنسية بعد المغادرة، ووضعُها بعد العودة إلى العربية:

أَميرُ البحر ← amiral ← أميرال.

دار الصَّنعة أو : دار الصناعة ← arsenal ← تَرْسانة / تَرْسَخانَة[14].

---

14 - الصيغتان معا في **محيط المحيط**.

طَرْح / طرحة ← tare ← طارَة [15].

مخزن، مخازن ← magasin ← مَغازة ، مقازة[16].

دُرْديٌّ ← tartre ← طِرطير / طرطر[17].

خُصَى الثعلب ← salep ← سَحْلب[18].

الحَمراء ← ←alhambra العَنْبرة[19].

شِكَّة ← jaque / jaquette ← جاكيت[20].

سَوادٌ (قِلْيٌ) ← soude / soda ← صُودا [21].

تَعريفة ← tarif ← طَريفة / طَريف[22].

زَيتون ← satin ← ساتان(ثوب)[23].

مَوْصِلي (نسبة لمدينة الموصل) ← mousseline ← مُسْلين (ثوب حريري)[24].

---

15 – مستعملة في المغرب.

16 – مستعملة في تونس والمغرب : مقازة، مگازة.

17 – انظر : **معجم اللغة العربية المعاصرة**.

18 – انظر: **المنجد والمعجم العربي الأساسي ومعجم اللغة العربية المعاصرة**. وكلمة **سَحْلب** تُطلق على فصيلة من النبات وعلى مشروب يُستخرج من الجذور المطحونة لهذا النبات الذي كان يُعرف في الكتب النباتية العربية ب (خُصى الثعلب). ثم اقتُصِر من هذا المركب الإضافي العربي على لفظ (ثعلب) فحُرِّف في الاستعمال الفارسي والتركي إلى (salap, saleb)، وتحوّل في القواميس الأوروبية إلى : salep، ولمزيد من التفاصيل راجع كتابنا: ***قاموس الألفاظ الفرنسية ذات الأصل العربي أو المعرب***.

19 – مستعملة في المغرب.

20 – في **معجم اللغة العربية المعاصرة** وردت الكلمة بصيغتين: جاكِتَّة وجاكيت.

21 – **معجم اللغة العربية المعاصرة**.

22 – مستعملة في المغرب بمعنى: الثمن المحدَّد للبضاعة.

23 – مستعملة في المغرب بشكل واسع.

24 – مستعملة في المغرب بشكل واسع.

راحة اليد ← raquette ← راكيطة (مِضرَب).

مَسْخ ، مسخرة ← masque ← ماسك (قِناع).

الخوارزمي ← algorithme ← لوغاريتمات.

لُبانٌ جاويٌّ ← benzine ← benjoin ← بِنزين.